الخليفة الأول

أبو بكر الصديق رضى الله عنه

فى مرآة الشاعر

عبد الحليم المصرى

دكتور / سالم عواد السيد حشيش

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين.

وبعد

فما أعظم قول الله تعالى :«لَقَدْ كَانَ لَكُم فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يرْجُو اللَّه واليَوْمَ الآخِر وَذكَر اللَّه كثِيرًا، مُحَمَّدٌ رسُولُ اللَّهِ والَّذينَ مَعَهُ أشِدَّاء عَلَى الكفَّارِ رُحَمَاءُ بينَهمْ تراهُم ركَّعًا سجَّدًا يبتغونَ فضْلاً من اللَّهِ ورِضوانًا سِيماهُم فِي وُجُوهِهِم منْ أثَرِ السُّجودِ ذَلك مثَلُهم فِى التَّورَاةِ ومثلهُم فِى الإنجيلِ كزرْعٍ أخْرَجَ شطْأَه فآزره فاستَغلظَ فاسْتَوى على سُوقِه يُعْجِبُ الزرَّاع ليغيظَ بِهمُ الكُفَّار وعَدَ اللَّهُ الَّذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُم مَغْفِرَةً وأَجْراً عَظِيماً».

وفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه الأبرار أسوة حسنة وقدوة مباركة يجب علينا أن نتمسك بها ونسير على هديها...

ومن خيار الصحابة رضوان الله تعالى عليهم كان الصديق أبو بكر رضى الله عنه الخليفة الأول لرسول الله صلي الله عليه وسلم، وثانى اثنين إذ هما فى الغار، ورفيقه فى الهجرة إلى المدينة المنورة، ثم هو رجل الشدائد والصعاب، وإرساء نظم دولة الإسلام الفتية بعد انتقال الرسول الكريم إلى الرفيق الأعلى وتسييره لدفة الأمور فى المجتمع الإسلامى فى جو عاصف متلاطم الأمواج وقد عري المجتمع عن أن يأتيه وحى السماء، فكان على الخليفة الصديق أن يسير سفينة مجتمعه وفق مايجد فى القرآن الكريم وسنة الرسول العظيم.... واجتهاده وخيار الصحابة معه...

فحق للشاعر أن يعجب بهذا المسلك العظيم وتلك السيرة العطرة والعزيمة الرشيدة لأول خليفة مسلم لدولة مسلمة تسير وفق منهج الله تعالى ثم يكون من الشاعر تجسيد تلك السيرة لتكون نبراسا يهتدى به اللاحقون بسلفهم الصالحين المهتدين، وحق كذلك للد ارسين تناولها بالدراسة والشرح والتوضيح لأهمية تلك السير العطرة لنمو وارتقاء المجتمعات الإنسانية.

لأن آخر هذه الأمة لن يصلح إلا بما صلح به أولها...

والله أسأل أن أكون قد وفقت لماقصدت...

إنه تعالى نعم المولى ونعم النصير،،،

ذى الحجة ١٤١٨

ابريـــل ١٩٩٨

د. سالم عواد السيد حشيش

التعريف بالشاعر

الشاعر: عبد الحليم المصرى

كان ميلاده عام ١٨٨٧م وهو تاريخ يمثل- غالبا- ميلاد معظم العباقرة المصريين، من شعراء وكتاب وموهوبين فى شتى أرجاء الحياة أضاءوا حياتنا فى نهضتنا الثقافية المباركة، والتى دبت فيها الحياة مع مفتتح القرن العشرين، وكان من نتاجها ثمار يانعة فى شتى سبل الحياة بالوطن ولا غرو فقد كان من معاصريه ميلادا بالوطن ونشأة يسبقونه بأعوام أو يسبقهم أو يتفق معهم فى الميلاد والتواجد على الساحة الأدبية حركة وإنتاجا ثرا، أمير الشعراء أحمد شوقى، والشاعر حافظ إبراهيم، وكذا العقاد وشكرى والمازنى وسواهم ممن كان لهم إسهام وافر، ونتاج يشكر، وفضل لاينكر فى ميدان الثقافة العربية فى مصر، ومنذ أن ملأ ناظريه نور الحياة وجد فرسان النهضة الأدبية قد بذلوا الجهد وشمروا عن سواعد الجد وأثروا بذلك ساحة الأدب إنتاجا ثرا فريدا كان ينزع فى شكله ومضمونه إلى ما أنتجه فحول الشعراء فى عصور القوة والازدهار..

لقد برز إلى الساحة الأدبية فى تلك الفترة شعراء موفورو الموهبة والاطلاع وأقبلوا إلى مطالعة الشعر القديم وحفظه فى صورته البيانية الجيدة والتى خلفتها عصور القوة والازدهار فى المشرق والأندلس، وكان ذلك متفقاً تماما مع روح العصر، تلك الروح الواعية الباحثة عن أمجاد الماضى العربى المشرق لتتكئ عليها الأمة فى كفاحها ولتجمع بها شملها وتقوى من عزيمتها وتواجه بذلك كله مزاعم من ينكرون أصالتها وقوتها، ويريدون أن يسلبوها كل مقدراتها، وقد تجلت هذه الروح بشكل آخر فى حركة إحياء التراث التى قامت بها جمعية المعارف»[1].

---

(١) تطور الأدب الحديث فى مصر- د. أحمد هيكل ص١٢.

وقد راد البارودى اتجاه بعث الشعر العربى فى العصر الحديث واتجه به إلى الأسلوب القديم المشرق الحى البعيد عن التهافت والتستر بالمحسنات فهو مؤسس الاتجاه المحافظ البيانى فى الشعر الحديث وليس المراد بالمحافظة أى لون من التقليدية أو المحاكاة بمعناها الردئ الذى تلغى معه الشخصية أو تغلق العيون والمشاعر عما يحيط بالشاعر ويمس نفسه، وإنما المراد بالمحافظة : اتخاذ النمط العربى المشرق مثلا أعلى فى الأسلوب الشعرى وهذا النمط تمثله تلك النماذج الرائعة من الشعر التى خلفها قمم الشعراء فى عصور الازدهار فى المشرق والأندلس.

والمراد بالبيانية إبراز الجانب البيانى فى الشعر بشكل واضح والاعتماد عليه أساساً كعنصر من أهم عناصر الجمال فيه، حتى ليقدم الجانب البيانى على الجوانب المتعددة الأخرى، وقد كان هذا الأسلوب المحافظ البيانى بعد ذلك وسيلة تعبير عن حياة الشاعر الخاصة وأحاسيسة الذاتية، ثم عن قضايا بلده ومشكلاته القومية وأخيراً كان وسيلة لتسجيل بعض أحداث العصر الخارجة عن نطاق الذات والوطن، وهكذا لم يكن استخدام الأسلوب المحافظ البيانى حاملا للشعراء من أصحاب هذا الاتجاه على حصر أنفسهم فى أغراض الأقدمين أصحاب هذا الأسلوب فى الأصل، وإنما كان أسلوبا حيا مشرقا قد اختير للتعبير عن أغراض تشبه أغراض الأقدمين حينا وتختلف عنها فى كثير من الأحايين.

على أن الشاعر من أصحاب هذا الاتجاه كان يتخذ من العالم العربى القديم عالما مثاليا يخفق له قلبه، ويهيم به خياله ويشد إليه وجدانه لأنه عالم الآباء الأماجد والتاريخ العريق، والدولة العربية الغالبة ومن هنا كان يستمد الشاعر كثيرا من صوره من هذا العالم»[1].

---

(١) تطور الأدب الحديث فى مصر- د. أحمد هيكل ص ٦٢.

وشاعرنا- المصرى- كان أحد هؤلاء الشعراء الأفذاذ الذى أفاد من تراث الماضى كما أفاد من نتاج المعاصرين سابقيه على درب النهضة المباركة، فقد كانت موهبته فذة وإنتاجه ثر فريد فى ميدان الشعر، فقد انطلق كالسهم فى ساحته فأتى بالفرائد من القصائد الشعرية ويكفيه فخرا تلك القصيدة العظيمة بل الملحمة الرائعة التى سطرها لنا بأحرف من نور مجسدا من خلالها سيرة الخليفة الأول لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأعماله العظيمة، مشيدا بها ورافعا قدرها ومذكرا الناس بها وحاضا الناس على السير على نهجها، وداعيا إلي الأخذ بما فى سيرته وعزيمته من عظات وعبر وأخبار وسير ومثل ومبادئ استمدها من الدين الإسلامى الحنيف واقتداء منه برسول الله صلى الله عليه وسلم.

إن هذا الشاعر- بالرغم من قصر عمره فى الحياه وماتبع ذلك من غيبته عن الساحة الأدبية مبكرا، شأنه شأن بعض نظراته ممن ظهروا سراعا على الساحة الأدبية ثم ودعوها مبكرا كذلك فى كل العصور وبالرغم من ذلك فقد تركوا بصماتهم واضحة على الساحة الأدبية فمنهم طرفة بن العبد البكرى صاحب المعلقة المشهورة والتى ابتدأها بقوله :[1]

لِخَوْلَةَ أَطْلالٌ[2] بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ[3] تَلُوحُ كَبَاقِي الوَشْمِ فِى ظَاهِرِ اليَدِ

وأبو القاسم الشابى الذى يقول فى شعره[4]:

---

(١) معلقات العرب- بدوى طنابة ص٣٠.

(٢) الأطلال: جمع طلل وهى مابقى من آثار الذيار.

(٣) موقع به حجارة ورمال.

(٤) ديوان الشابى ص شاعر تونسي برز على الساحة الأدبية وتميز بوفرة إنتاجه ومات صغيراً.

إِذَا الشَّعْبُ يَوْمًا أَرادَ الحَيَـاةَ فَلابُدَّ أَنْ يَستَجيبَ القَـدَرْ
ولابُدَّ لِلَّيـل أَنْ يَنْجَلِـى وَلَابُـدَّ لِلقيدِ أَنْ يَنْكَسِـرْ

وغيرهما من الشعراء الذين أثروا الحياة الأدبية بأشعارهم فى فترة زمنية وجيزه وهكذا كان شاعرنا فقد ولد فى مايو ١٨٨٧م وبعد أن أتم دراسته الابتدائية والثانوية دخل المدرسة الحربية وتخرج منها عام ١٩٠٦م فى التاسعة عشرة من عمره وألحق ضابطا بالأورطة السادسة عشرة من المشاة فى كسلا.... بالسودان.

تعشق الشعر والحرية منذ صباه فجاء بقصائد رقيقة فى التغنى بالحرية والوطنية، وظل يغرد بالشعر ويتغنى به إلى أن توفى فى يوليه ١٩٢٢ وكان حين وفاته فى ريعان الشباب فكان لوفاته وقع أليم فى النفوس وكانت له فى الشعر مكانة ممتازة عبر عنها حافظ إبراهيم بقوله فى رثائه :

لَكَ اللَّهُ قَدْ أَسْرَعْتَ فِى السَّيرِ قَبْلَنَـا
وآثرتَ يَا «مِصْرِيُّ» سُكْنَى المَقَابِـرِ
وَقَدْ كُنْتَ فِينَا يَافِعَ الشعرِ زَهْـرَةً
تَفَتَّحُ لِلأَذْهَانِ قَبْـلَ النَّوَاظِـرِ
فَلَهْفِى عَلَى تِلْكَ الأَنَامِلِ فِـى البِلَـى
فَكَمْ نَسَجَتْ قَبلَ البِلَى مِنْ مَفَاخِـرِ
وَيَاوَيْـحَ لِلأَشْعَـارِ قَبْـلَ نَجِيِّهَـا
وَيَحَ القَوَافِى سَاقَـهَا غَيرَ شَاعِـرِ
تَزَوَّدْتَ مِنْ دُنيَـاكَ ذِكْـرَا مُخَلَّـدًا
وَذَاكَ لَعَمْرِى نِعْمَ زَادُ المُسَافِـرِ[1]

---

(١) شعراء الوطنية- عبد الرحمن الرافعى ص ٣٨٩.

وهكذا كان شاعرنا الذى وسم بأنه شاعر الوطنية والشباب،فقد انطلق فى الحياة كالسهم وخرج منها كالشهاب، بريق خاطف وحياة قصيرة متوترة، حافلة بالعديد من النجاحات..

لقد ولد الشاعر عام ١٨٨٧م وسط أجواء نهضة ثقافية متألقة فقد ازدهرت الساحة الأدبية وأينعت بفرسانها خير الثمار وبالرغم من ازدحام الساحة الأدبية بالرواد الكبار وما تبع ذلك من وفرة الإنتاج الأدبى وغزارته، فقد استطاع الشاعر عبد الحليم المصرى- بالرغم من حداثه سنة وقصر مدة خبرته أن يتبوأ مكانة سامية ومرموقة بين الرواد العمالقة ولم يكن ذلك إلا بإنتاجه الثر الفريد والشعر المتوهج والذى أعاد للشعر أصالته ورد إليه رونقه وبهاءه ولم يكن منه ذلك إلا من خلال الإقبال على التراث الشعرى العربى يغترف منه ما يشاء ليكون زاده الذى لاينفذ وذخيرته التى لاتنضب، وكان هذا شأنه وشأن العمالقة من معاصريه الذين انكبوا على شعر الشعراء القدامى عللا نهلا فاغترفوا منه ما استطاعوا، ونسجوا منه خيوط موهبتهم الثرة والتى أحيوا بها موات الشعر العربى ونفضوا عنه غباره، ومزقوا أكفانه لينطلق قويا هادرا كما كان فى الماضى، وتحقق فيه كما تحقق فى غيره من ألوان الأدب ما قاله النقاد : «الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه.. فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن البرز، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان ولست أفضل فى هذه القضية بين القديم والحدث والجاهلى والمخضرم والأعرابى والمولد...»[١].

---

(١) الوساطة بين المتنبى وخصومه- على بن عبد العزيز الجرجانى ص١٥.

إنها محاولة من الشاعر عبد الحليم المصرى لبعث جديد لسير حميد وأسوة حسنة فى زمن قل فيه المحسنون وكان هدفه فى شعره، كما كان يهدف الشعراء القدامى فى شعرهم وبشعرهم فى سائر الأزمان...

كما أن هذه الدراسة لهذا الشعر من الشاعر لون من الإنصاف له فقد وافقه المنية سريعا فلم يعمر طويلا، وحق لنا التعرف على شعره والوقوف على مدى ما أنتجه والحكم عليه وإنصافه وإظهاره وإعلاء شأنه فيما يستحق من شعر جزل زاحم به أساطين الشعر فى عصره فى مدة عمره القصير...!!

أما عن ديوانه الذى بين أيدينا وتم اختيار القصيدة موضوع دراسة البحث منه فهو ديوانه الشعرى الذى قامت بطباعته مطابع روزاليوسف الجديدة ضمن كتب الثقافة الجديدة سلسلة شهرية، تصدرها الهيئة العامة لقصور الثقافة فى سبتمبر ١٩٩٣م وهو ديوان زاخر بشتى الألوان الشعرية مما يدل على موهبة شعرية فذة وأول أغراض الشعر فى الديوان هو الوصف- وكانت أول قصيدة للوصف فى قصر... أنس الوجود... وهو مشيد على عمد فى ماء النيل بالقرب من شلال أسوان والتى يقول فيها:(١)

وَقَفْتُ عَلَيْكَ دُمُوعِى أَيُّهَا الطَّلَلُ(٢)
عَيْنِى إِلَيكَ وَقَلْبِى لِلأُلَى رَحَلُوا
أَرْسَلْتُ بِالعَيْنِ فِى سَقْيَاكَ هَامِيَةً(٣)
وَفِى الطُّلُولِ البَوَاقِى تُرْسِلُ المُقَلُ
لَوْلاَ بَقِيَّةُ أَطْلاَلٍ لَمَا عَرَفَتْ
عُيُونَنَا أَيْنَ كَانَتْ دُورُنَا الأُوَلُ

---

(١) ديوان المصرى ص ١٧.
(٢) الطلل: ما بقى من آثار الديار.
(٣) باكية تزرف الدمع.
(٤) المقل: جمع مقلة وهى تجويف العين.

وهى قصيدة قوية وجزلة ذات معان عظيمة وحكم قويمة إضافة إلى ذلك فله شعر فى التهانى والمدائح الكثيرة التى رفعها إلى أولى الأمر فى زمنه، كما كان له شعر فى السياسة والاجتماع وكذا الإسلاميات حيث الاحتفال برأس السنة الهجرية وهو تقليد كان متبعا فى ذلك العصر وله شعر فى إبراز فضائل الإسلام، كما يتحدث باسم الشعب فى قصيدة على لسان الشعب والحرية فى رثاء مصطفى كامل يقول[١]:

أَقَمْتَ صَرحًا أَطَالَ النَّشْءُ قَمَّتَه[١]
حَتَّى تَقَاصَرَ عَنْها أَطْوَلُ القِمَمِ
فمن تَفَيَّأَ فِى ظِلِّ اللِّواءِ فَلا
يَخَافُ صَرْفَ الرَّدَى أَوْ شِدَّةَ الأَزَمِ[٢]
وَقُمْتَ بِالأَمْرِ فِى عَهْدٍ إِذَا بُعِثَتْ
فِى أَهْلِهِ الرُّسْلُ لم يُؤْمَنْ فَتَى بِهِمُ
كأَنَّما الدَّعوةُ الأُولَى الَّتِى اتَّبَعَتْ
كَانَتْ طَعَاماً وكَانَ الشَّعبُ كالنَّهِمِ

وفى الجزء الثانى يتحدث عن النواحى الاجتماعية والأخلاقية ويتناول القمار فى شعره كأداة من أدوات المجتمع ويتخذ العظة والعبرة ممايحدث للمقامرين فى عبرة المقامر، والفقر مقبرة بناها الميسر.. يقول[٤]:

صادفْتَ يَالَيْلَ الأسَى منْ بَصَبرُ
فعلَى السَّواءِ تطُولُ بى أَمْ تَقْصُرُ

---

(١) ديوان المصرى ص٩٥.
(٢) البناء.
(٣) تنعم- الردى الهلاك.
(٤) ديوان المصرى ص١٤٩.

كَم فِيكَ مِنْ شَاكٍ صَنِيعَكَ ضَاجِرٌ لولَاكَ مايشْكُو ولايتضَجَّرُ
لولَا مدامِعه الغزار لقَادَرَت زَفراتهُ فَحمَ الدَّجَى يَتسعَّرُ
ما كانَ ذا ثأرٍ ولَامَضنًى هوًى لكنهُ أخْفَى عَلَيهِ المبْسِرُ

ومنها التوبة- بين المقابر ميت يتكلم- وهى قصة امرأة فقدت عائلها وتلقفتها أيدى الشر، لتدفع بها إلى طريق الرذيلة وسلكت مسالكه وجنت مر ثمره ولكنها لفظته لتعود ثانية إلى ربها تائبة باكية بين القبور يقول على لسانها(١):

فَخلعتُ ثوبَ الفُحْشِ خلعَةَ حسّرةٍ
وأتيتُ أبكِي فِى القُبُورِ وألطُمُ
أبكى فَتًى نحلَ الفَنَاءُ عِظامَهُ
قد كَانَ يمنَعُ حوبَتى ويعصِمُ(٢)
فحملتُهَا وأتيتُ مُنتجعًا بِهَا
(بيت العَفافِ) فإن بيتِى مُظلِمُ
فانظُر لِخالقِهَا وقُومَ أمرَهَا
باخيرَ منْ يُعلِى العَفافَ ويُكرِمُ

وفى تربية الأبناء والعناية بهم يقول من قصيدة(٣):

وتربيةُ البنِينَ أجَلُّ زُخرًا مِنَ المَالِ الذى ذَخرَ الرِّغَامُ(٤)
فلا تزوهمُوا فِى المُلكِ فَوضَى فإنَّ دَعائمَ المُلكِ النِّظامُ

---

(١) الديوان ص ١٥٦.
(٢) الحوبه: الذنب.
(٣) الديوان ص ٢١٧.
(٤) الرغام: التراب.

بَنُو الفقراءِ فى مِصرَ كُنوزٌ ... فَهَلْ حلّت طَلاسِمَها الأَنَامُ
فياقَومُ اغرِسُوا خَلفًا مَنِيعًا ... لِمصرَ إِذا ترعْرَعَ لايُضَامُ
أَرَى نُورا بَدَا والليلُ دَاج ... أبرقٌ ذاكَ أمْ هذَا ضِرَامٌ(١)
بَلَى هذَا هُو الأَملُ المرجَّى ... تَيَقَّظَ فِى البلادِ فلاتَنَامُوا
إِذا لَمْ تُحدِثُوا شَعْباً جَديدًا ... لِمصر فقُلْ عَلَى مِصر السَّلَامُ

وفى الدعوة إلى الجهاد ومحاربة أعداء الإسلام وخانقوا حرية الشعوب يقول حاثا على التطوع والجهاد :

سلامُ اللّهِ يا دَارَ السَّلَامِ ... لِيخْمُدَ فيكِ مُلتَهَبُ الضِّرامِ
فسيفُ اللّهِ فى كَفِّ الإمَامِ ... وجُنْدُ نبيهِ مِلءُ الأَكَامِ
تَطَوَّع يافَتى الهَيجَا تطَوَّع ... لأَنت بِمَنبرِ الهَيْجَاءِ(٢) مُصْقَع(٣)
فَصِفهَا إِن سَلِمتَ وقُلْ وأَسْمِع ... «فإن القَولَ مَاقَالتْ حَذام»

وفى الدعوة إلى الوئام بين النصرانية والإسلام يقول(٤):-

«أحمدُ» باتَ مختصِمًا و«عيسَى»
كما اختصَمت شُعُوبُهما اختِصَاما
هما أَخَوانِ فى الدُّنيَا ولكنْ ... أحبُّ النَّاسِ أكثرهُم سَلَامَا
كِلاَ الدِّينينِ عِندَ اللّه حَقٌّ ... وخيرُهُما الذِى يَرْعَى الذِّمَامَا
فلاتَدعُوا خصُومَكُموا علَيكُم ... تَهِنْ فَوَاجِذًا وتَهُزَّ هَامَا(٥)

---

(١) ضرام: النار المشتعلة.
(٢) الهيجاء: الحرب.
(٣) مصقع: خطيب بليغ.
(٤) الديوان ص ١٨٠.
(٥) النواجذ: جمع ناجذ وهو السن بين الضرس والناب.

وله شعر فى رثاء الشخصيات المرموقة والتى كان لها دور بارز فى نهضة الوطن وتقدمه يقول(١):

رِيَاضُ تَركْتَها حَيرَى الأَمانِى ... تُسَائِلُ عَنْكَ مابَينَ القَطِين(٢)
فأَرشِدْهَا إلى رَجُلٍ حَكِيـــم ... سَدِيدَ الرأْيِ مِقدامٌ رَكِـــين
إذا التَبست عَلَى مِصر أُمُورٌ ... يفرُجهُـــنَّ بِالحـــقِّ المِبـــين
إذا ما أنصَفُوا دَفنُوك مِنَّـــا ... بِمأوَى الحبِّ والسِّر الكَنِين(٣)
وَراحُوا يُدرِجُونَك فى نَسِيـــج ... مِن التَّقوَى بِسَاجِيةِ الحُيُـون
لقد خَتمَت حَياتكَ بالمعالِـى ... فيسر للَّـه وضَّـاء الجبِـينِ

وفى الحماس والحمية والدعوة إلى اليقظة ومحاربة الغرب ورد عدوانه يقول(٤):

يا أَيهَا المُسلمُون استَيقظُوا وكفَـى
نَومًا فإنَّ عُيونَ الغرب لم تَنَـم
هَذِى مَمالِككم تُغتَـى وأرضُكُـم
يَسُومُها القَومُ سَوقَ النُّوقِ للسَّلَـم
أصبحتُم بَدَدًا فى كُـلِّ نَاحِيـةٍ(٥)
كأنما صِرتُم فى دولَـةِ الخَـدَم
كأنكُم فِى أسَالِيبِ الرَّبَى كَلِـمٌ
على الطُّروسِ مَحتهَا رَاحَةُ القَدَم(٦)

---

(١) الديوان ص ٢٠١.
(٢) القطين : الساكن.
(٣) القلب.
(٤) الديوان ص ٢١٤.
(٥) مشتتين.
(٦) الطروس : الورق.

أتصبرونَ على قومٍ نمارِدَة حتى تُباعُوا بِسُوقِ الشَّاءِ والنَّعَمِ

وقصيدته التى نظمها تعبيراً عن حبه لأبى بكر الصديق والتى يقول فيها(١):

أفضْنِى أباَ بكرٍ علَيهم قَوافِيَا وأمطِر لِسَانِى حكمةً ومعَانِيَا
وقُلْ لرسولِ اللهِ لم أعْدُ مدحَهَ وإنْ لم أكُنْ فِيه بِشعْرِى بَادِيَا
مَقامُ رسُولِ اللَّهِ فــوقَ قَصائِــدِى
وهل شَرُ النَّبراسِ بُجدِى الدَّارِيَا(٢)
وإنكَ فِى الإسلَامِ منْ حسَنَاتِــــه
فمدحُكَ كنْــى عَنْــهُ دونَ بَيانِهَا

وفى تصوير ما يلاقيه اليتيم من ذل وهوان وانكسار ومشقة فى الحياة يقول الشاعر(٣):

أنَا منْ ماتَ والدَاه ولم يَلْق مُعينَا.....أنَــا اليتيــمُ العَــارِى
لستُ أدرِى أصرتُ ظلاً لظلّــى أم شَمَارا لِذلّتِــى وانكِسَارِى
إن أطَالِعْ أخا اليسَارِ يُبــادِر فِى بَثّكْوَى الزَّمانِ والإعسَارِ
غيرَ أنّى أرَى القناعةَ تكفِى المر ءَ ذلَّ السُّــؤالِ دُونَ اليَسَارِ
لَم يُقلِّنِى عمىً ولم يرعَ خالِــى سوءَ حَالِى ولم يَعُلْنِىَ جَارِى(٤)
يا بَنِى مِصرَ إنْ فى مصرَ أيتــا مَا كبارَ الآمــالِ والأوطَــارِ

---

(١) الديوان ص ٣٠٢.

(٢) النبراس: ما يستضاء به- الدرارى الكواكب المضيئة.

(٣) الديوان ص ٣٥٢.

(٤) يقلنى: يحملنى- يرع- يخف- يعلنى: يقوم بإعالتى.

عَلِّمُوهُمْ فربَّما جَارُوا النـاس وجازُوا بالمعْجـزاتِ الكِبَارِ[١]
إنَّ أسلافَكُمُ أقامُوا بِمصـرَ أثراً خالداً على الأَدهَـارِ

ويقول عن تعليم البنات وتأديبهن وكيف أنهن ركنا من أركان المجتمع وأن كثيراً من النساء الفضليات سبقن إلى الخير فكان لهن دورهن الذى لاينسى ولايجحد على مر الأزمان.

وبذلك نلن الخلود والمجد والسعود يقول الشاعر :

مِنْكُنَّ وَاهِبةُ الأُلُوفِ زُبيـدةٌ[٢] مِنْكُنَّ شَاعِرةُ الحِمَى الخَنْسَاءِ[٣]
مِنْكُنَّ أمُّ المؤمنينَ خَدِيجـةٌ[٤] مِنْكُنَّ والدةُ الهدَى العَذْراءِ[٥]
نِلْنَ الخُلودَ بِذكرِهنَّ وعطَّرتْ بِصنِيعِهنَّ الصُّحفُ والأنبَـاءُ
المجدُ مَوقُوفٌ عَلَى طُلاَّبِـه وبه رِجَـالٌ تَستَـوِى ونِسَـاءُ
لاتحسَبِ المالَ البناتُ غنًى لها فغنَى البناتِ طهـارةٌ وحيَـاءُ
مَنْ لَم تَرِثْ عَن وَالِدَيهَا تَالداً فَعفافُهَا عِندَ الرجَـالِ ثَرَاءُ[٦]

وهذا قليل من كثير من الشعر الجزل الذى فاض به الديوان وهو غاص بمعظم الأغراض الشعرية التى نظم فيها شعرا جزلا يماثل ما أنتجه شعراء عصره، ولا غرو فشاعرنا أحد شعراء البعث والإحياء تجمعه وإياهم المعاصرة والزمن والإنتاج المتماثل وقد كان لهم فضل لايجحد فى النهوض بالشعر من

---

(١) الأوطار: الحاجات.
(٢) زبيدة: زوجة الرشيد وهو أعظم خلفاء العباسيين وأثر عنها الكرم والمروءة.
(٣) الخنساء شاعرة أدركت الجاهلية والإسلام.
(٤) زوجة الرسول الكريم وأم البنين والبنات.
(٥) السيدة مريم أم السيد المسيح.
(٦) الديوان ص ٣٥٠.

كبوته ومضاعفة وثبته وتمزيق أكفانه، وإزاحة غبار التخلف والجمود عنه لينهض قويا هادرا تدفعه القوة وينتظمه التجديد والفتوة مع المحافظة على سمات شعر القوة والازدهار...

لقد كان شعر الشاعر يجمع بين ابتكار أبى الطيب المتنبى وانسجام الوليد وجزالة ابن برد فكان جديرا بأن يناط بأسلاك الذهب ويخلد فى عالم الأدب، وما الاعتناء يجمع هذا الشعر إلا لكونه درا نضيدا ولآلئ منثورة، وخليق بالدرر أن تدخر وباللآلئ أن تصان من الامتهان، وكثير مما فى الديوان من شعر الشاعر صحيفة خالدة من الشعر الجيد أفنى فيه الشاعر شطرا غير يسير من حياته فى زهرة عمره وأيام شبابه فجاء آية فى البيان.. وغاية فى الإبداع والإحسان.

المطولة وموضوعاتها

ما أشد حاجتنا- نحن المسلمين فى كل عصر وزمان إلى القدوة الحسنة والمثل العليا كى تستضيئ بهديها ونسير على سننها ولنا فى رسول الله صلي الله عليه وسلم خير أسوة وأعظم قدوة قال الله تعالى «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ...» وهو الهدف الأسمى والغاية الفضلى من الاقتداء والتمسك بسنة رسول الله صلي الله عليه وسلم ولايقف الآمر بالمسلم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتداء به وإعجابا بسيرته، بل إن باب القدوة مفتوح على مصراعيه أمام المسلمين لذا وجدنا الشعراء يجسدون سيرة كبار الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وكان ذلك فى العصر الحديث ومن ذلك ماصنعه الشاعر حافظ إبراهيم حين نظم العمرية تجسيداً لأعمال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، والشاعر محمد عبد المطلب صاغ سيرة الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه...

أما شاعرنا المصرى فكان إعجابه بسيرة الخليفة الأول أبى بكر الصديق رضى الله عنه فقد صاغها لنا درا نضيدا وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قال مخبرا عن أصحابه «أَصْحَابِى كَالنُّجُومِ بِأَيِّهِم اقْتَدَيتُم اهْتَدَيتُم» ولا غرو فهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم شموس الهداية وأهل الرعاية والعناية، وبهم وبمجهوداتهم اكتملت للمجتمع الإسلامى الوليد- فى العالم- الريادة، ورفرفت راياته عالية خفاقة من أقصى الدنيا إلى أقصاها فكانوا بحق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم خير هداة وأعظم رعاة...

وإذا كان هذا شأن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم جميعا فمن غير شك فإن من أولاهم بالتكريم والإجلال بعد رسول الله (ص) هو صاحبه

الوفى الأمين وصديقة الصدوق من وهب نفسه وماله لدعوة الإسلام، وضحى بالنفس والنفيس من أجل نصرة الإسلام، ونعم بصحبة رسول الله صلي الله عليه وسلم منذ أن دخل فى الإسلام إلى أن لحق الرسول صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى، وكان له شرف مصاحبته فى هجرته الخالدة إلى يثرب وكان ثانى اثنين إذ هما فى الغار قال الله تعالى «إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»(١).

لقد ضحى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنفس والنفيس وكانوا أقطابا فى الدعوة إلى الإسلام وقد شمروا السواعد وجردوا عن أسلحتهم، وقدحوا زناد أفكارهم وأعملوا منطقهم وبيانهم وساسوا الناس بعدلهم امتثالا لأمر ربهم وسنة نبيهم وحماية لدعوة الإسلام وإقامة لمجتمع العدل والمساواة والإخاء وكان منهم الشهداء الأبرار الذين سالت دماؤهم الذكية فداء لرسول الله صلى الله عليه وسلم والإسلام ابتغاء مرضاة الله تعالى دون أن يكون لهم أدنى مقاصد نفعية دنيوية، بل كان الله أمامهم فى كل مايأتون ومايذرون وكان معهم فانتصروا وعمروا شتى بقاع الأرض خيرا وبركة.. فاستحقوا بذلك أن يشاد بهم وأن تجسد أعمالهم وأخلاقهم لتكون نبراسا لمن يأتى من الأمم بعدهم علهم يسيروا على نهجهم ويسلكوا مسلكهم حتى يتبوأوا مكانهم اللائق بهم بين الأمم...

وإذا كان للإسلام دوره الكبيره فى ترقية العرب وسائر الأمم التى هداها الله تعالى إلى دينه فيما مضى من الأزمان وكانت لهم منزلة عليا لم تكن تطاولها فى تلك الأزمان منازل الأمم السابقة.. والتى كانت تغط فى

---

(١) سورة التوبة الآية : ٤٠.

سبات عميق، فإن ذلك لم يكن ليكون لولا وجود دستور سماوى ورسول ذو خلق عظيم وأصحاب أفذاذ جعلوا طاعة الله ورسوله نظام حياتهم ومنهجهم فسعدوا وسادوا أما سواهم من الأمم فلم يكن لهم ما كان للمجتمع الإسلامي من دستور سماوى ينظم حياتهم كما أنه لم يوجد فى حياتهم مثل عليا يقتدون بها فلذا تفوق الإسلام وترقى مجتمعه دون مجتمعاتهم.. حتى إذا دار الزمان دورته وترك الناس كثيرا مما أمرهم الله تعالى بالتمسك به ضلوا وتاهوا فى بيداء الحياة وضاعت الثوابت بين الناس، ولم يعد هناك من مثل تساعد على انضباط وقع الحياة وتنظم مسيرتها وتؤدى بها إلى سلوك الجادة وحلت محل القيم العربية الإسلامية الأصيلة فى كثير من الأحوال قيم أخرى مجتلبة من غير مجتمعاتنا وهى بالطبع لاتناسبنا فكان حقا علينا أن ننزع إلى أصولنا وثوابتنا وقيمنا ومثلنا العليا، نجتلى جوانبها ونشع الضوء من حولها ونكشف عنها ما قد يكون قدران عليها من غبار الزمان وعوامل النسيان كى نجعلها فى محل الصدارة لتعود مرة أخرى زادا لنا فى الحياة ومعلما نسير على هديه فى مسالك الحياة.

وسيرة أبى بكر الصديق رضى الله عنه أفضل السير وأمثلها بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم - ولا غرو فهو يحق رجل الشدائد والمهمات... وهل هناك شدة فى الزمان وحلكة فى الأيام أعنى وأشد من واقعة انتقال الرسول الكريم إلى الرفيق الأعلى وماصاحب ذلك من انقطاع الوحى وانقطاع خبر السماء عن الأرض، فلقد جل الخطب وعلا النحيب والعويل وكيف للمسلمين ومجتمعهم الوليد أن يستحث الخطى على درب الحياة بدون رائده وقائده فلقد كانت تلك الحادثة هى التى زلزلت المجتمع كله وأدهشت الناس وأذهلتهم بل ذهبت بألبابهم ولم يكونوا يصدقون النعى...

وها هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه يهدد ويتوعد كل من يقول بانتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى...

وبينما هو فى هذه اللحظات الحالكة إذ بصوت الحق يعلو متمثلا فى شخص الصديق أبى بكر رضى الله عنه حين قال مخاطبا جموع الباكين والمنتحبين حزنا وجزعا لفراق الرسول الكريم وذلك حين قال مخاطبا إياهم: أيها الناس: مَنْ كَانَ يعْبُد مُحَمدًا فإن مُحَمدًا قدْ مَات، وَمَنْ كَانَ يعْبُد اللَّه فإنَّ اللَّه حَىٌّ لايَموت... ثم تلا قول اللَّهِ تَعَالى «وَمامُحَمدٌ إلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبلِه الرسل، أفَائِنْ مَاتَ أو قُتِل انْقلبْتم عَلَى أعقَابِكم ومَنْ ينْقَلِبْ عَلَى عَقبيه فلنْ يضُرَّ اللَّه شيئًا وَسيجْزى اللَّهُ الشَّاكِرين»(١).

هذه هى القوة الإيمانية التى تحلى بها بدر تلك الملكة الداهمة والفجيعة القاصمة وكان صاحبها والمتحلى بها هو الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضى الله عنه، فكان بهذا أقوى الأقوياء فى تلك الأزمات الشديدة الحلكة، ولم يكن هذا هو الموقف الوحيد الذى ترجم قوة هذا الرجل العظيم بل إن كثيرا من هذه المواقف الصعبة التى تحملها هذا الرجل العظيم فى قوة وثبات وكان رأيه هو الأسد والأقوى فى وجه خصوم الإسلام وتحقق له وللإسلام ما أراد من عزة ورفعة وازدهار.

وشاعرنا أغرم بتلك الشخصية العظيمة للخليفة الأول فصاغ مواقفها شعرا عذبا ليكون ذخرا للأجيال يبقى على مدى الأيام قدوة حسنة ومثلا أعلى محققا بذلك أهدافا عظمى كان من أولها إبراز خصائص وسمات ومزايا ذلكم الرجل العظيم.

وشئ آخر هو اتخاذه من الشعر أداة لإظهار تلك السمات والمزايا نبراسا يستضيئ به الأجيال، تحقيقا لما كان يقوم به أسلافه من الشعراء

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٤٤.

العرب القدامى وذلك حين كانوا يجعلون من الشعر أداة لإبراز تلك الخلال والمزايا.. يقول ابن رشيق.. كان الكلام كله منثورا فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها، وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النازحة وفرسانها الأنجاد، وسمحائها الأجداد لتهز أنفسها إلى الكرم وتدل أبناءها على حسن الشيم، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تم لهم وزنه سموه شعرا، لأنهم شعروا به أى فطنوا»[1].

وها هو شاعرنا يحلق بنا فى أجواء التاريخ يجسد لنا مواقف الخليفة الأول وهو الأسد الهصور، ورجل المهام الجسام والأحداث الجلائل علها تكون نبراسا لنا نستضيئ به ونسير على هديه..

يستهل الشاعر قصيدته البكرية جاعلا عنوانها «أبو بكر الصديق»، ثم يتجه بالمناجاة إلى شخصية الصديق طالبا منه من منطلق حبه له وتعلقه به، أن يجعله ذلك يفضى بما فى دخيلة نفسه وبما تشبعت به ذاته من صفات وخلال ومزايا لذلكم الرجل العظيم طالبا منه أن يلتمس الإذن فى ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم معلنا أنه وإن كان يمدح الخليفة الأول رضى الله عنه، فإن فى مدحه له مدحا للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، لأنه يمدح فيه الخير والإيمان والقوة بالله، ولم يكن الخليفة الأول أبو بكر الصديق ليصل إلى ما وصل إليه فى الدنيا من منزلة عظيمة لولا رسول الله صلي الله عليه وسلم «وصدق فيه قول الرسول الكريم «المرءُ علَى دِينِ خَليلِهِ فلينظُر أحدُكم منّ يخَالل».

كما أن الشاعر فى مفتتح القصيدة يرى نفسه فى منزلة لاتكاد تتطاول إلى مدح الرسول الكريم، لأن مقام رسول الله أسمى من أن تنالـــه

---

(١) العمدة- ابن رشيق جـ١ ص١٩.

وتحيط بصفاته العظيمة وفضائله الجمة قصائد الشعراء لأن مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل وأسمى من قصائد الشعراء كما أنه صلى الله عليه وسلم ليس بحاجة إلى مدح المادحين وثناء المثنين بعد أن أثنى عليه رب العزة جل وجلا حيث قال الله تعالى مخاطبا رسوله الكريم.. «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيم»[1]. وإن فضائل وأخلاق ومثل رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عمت البشرية كلها وكان ممن نالهم باكرا هذا الخير العظيم هو ذلكم الممدوح الكريم الذى نعم باكرا بالإسلام وصحبة خير الأنام عليه الصلاة والسلام...

لذا فإن مدح الخليفة الأول لرسول الله هو مدح للنبع الأول للأخلاق والفضائل، وإن لم يكن ذلك من الشاعر باللفظ الصريح... ويكفى الشاعر اعترافه بعلو مقام الرسول الكريم عن أن تناله قصائد الشعراء يقول الشاعر:

أَنضَنِى أَبَا بَكْرٍ عَلَيهِم قَوافِيَا ... وَأَمطَرَ لِسَانِى حِكْمَةً وَمَعَانِيَا
وَقُلْ لِرَسُولِ اللَّهِ لَمْ أَعْدُ مدحَه ... وَإِن لَم أَكُن فِيه بِشِعرِى بَادِيَا
مَقَامُ رَسُولِ اللَّهِ فَوقَ قَصَائِدِى ... وَهَلْ شَرَرُ النِّبرَاسِ يُجدِى الدَّارِيَا[2]
وَإِنَّك فِى الإِسلَامِ مِنْ حَسَنَاتِه ... فَمَدحُك كَنَّى عَنْه دونَ بَيَانِيَا[3]

ولى عتاب هنا على الشاعر، وإن كان قد اعتذر إلا أن عذره لايقبل.. فى رأيي وبخاصة فى مثل هذه المواقف بالنسبة للرسول الكريم صلى الله

---

(١) سورة القلم الآية : ٣.
(٢) النبراس: المصباح- الدرارى جمع الكوكب المتلألئ الضوء.
(٣) الديوان ص ٣٠٢.

عليه وسلم لماذا يلجأ الشاعر إلى التلميح، وخير منه وثواب عظيم يناله الشاعر بالتصريح بمدح الرسول الكريم حيث يكون ذلك طاعة لأمر الله تعالى يقول الله تعالى «إِنَّ اللَّهَ وملائِكَتَهُ يصَلُّونَ عَلَى النَّبِى يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيهِ وَسَلِّموا تسْلِيمًا»(١).

ومن غير شك فإن مدح الشاعر لشخصية أبى بكر الصديق رضى الله عنه قد أوجد لدى الشاعر هيبة وخشية ورهبة ألا يصل إلى ما يريد من تجسيد سمات ذلكم الرجل العظيم بل إن البيان قد نكص عنه وواضح القول قد جافاه واستعصى عليه وداخله الخوف من ألا يوفق إلى مايريد ولهذا فإن الشاعر توجه إلى الممدوح مظهرا حبه ومبينا أثره فى تمكنه من القول وإجلاء جوانب الشخصية العظيمة...

لقد كان لحبه لشخصية الصديق رضى الله عنه أثر كبير فى أن يسلسل القول القياد للشاعر ويذلل الركاب، ويطلق لخياله العنان أن يصور، ولسانه أن يعبر عما يعتمل فى نفسه، حتى أيقن بإلهام الله تعالى له ولم يكن الشاعر مغاليا فى ذلك فتلك محبة أشربتها نفس الشاعر وروحه للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وصحبه الكريم عبر عنها لسانه فى هذا الشعر الرقيق.

يقول الشاعر :

وَقفتُ بِبابِ اللَّهِ والقَولُ نَافِرٌ ... فَأوقَرَ لِى الصِّدِيقُ منْهُ رِكَابِيَا
فَآمنتُ بِالإلهَامِ فِيكَ وَإن أقلْ ... تَعهْدِنى وَحْيٌ فلسْتُ مُغَالِيَا

ومن خلال الأبيات نستبين حالة الشاعر عند إقدامه على التعبير عما يكنه من حب للخليفة الأول رضى الله عنه فقد توكل على الله تعالى

---

(١) سورة الأحزاب الآية : ٥٦.

فانثالت عليه القوافى انثيالا وكان فى ذلك كمن أوحى إليه وقد تفجرت ينابيع موهبته بالشعر العذب فى قوة واقتدار دون مغالاة ثم يتقدم الشاعر إلى إبراز سمات الصديق فى شعره ومعبرا عما فى نفسه.

فيقول واصفا إياه :

بِـأَوَّلِ صِدِّيـقٍ وأوَّلِ مُؤْمـنٍ وأَوَّلِ شُـورِيَّ أَشَـدَّ رَجَائِيـا

وحقا فإن الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضى الله عنه كان هو رجل المهام الجسام فى حياة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وبعد انتقاله عليه السلام إلى الرفيق الأعلى، فلقد كان الخليفة الأول رضى الله عنه أول رجل آمن بالله تعالى وصدق برسوله الكريم صلى الله عليه وسلم حين كفر الناس ومن أخذ بالشورى فى أمور الدولة الفتية من منطلق الشرع الحكيم إلى غير ذلك من السمات العظيمة والخلال الكريمة والتى تحلى بها الصديق واستمدها من فيض الإسلام الغامر، ويذكر السبب فى تعبيره فى شعره ومدحه للخليفة الأول فيقول :

وأَضْرِبُ أمْثَالاً لِقَومِى تَجِيئُهمْ بِصُورةِ شَيْخِ المُسْلِمِينَ كَمَا هِيَا

وكأن سائلا سأل الشاعر قائلا ولماذا يكون هذا التعبير الشعرى عن الخليفة الأول منك؟ فيكون البيت التالى إجابة من الشاعر موجها شعره إلى أمته العربية المسلمة فى قوله :-

عَسَى أنْ يُعِيدُوا مَا أضَاعُوا مِنَ الهُدَى
وأن يتلاقُـوا منْهُ ما كَانَ بَاقِيَـا

لقد كان هذا هو السبب الذى وقر فى ذهن الشاعر ودفعه إلى أن يسجل تلك المآثر لإذكاء المشاعر وبعث الضمائر فى النفوس لتعود الأمجاد لدى الأحفاد كما كانت لدي الأجداد...

لقد جاء الإسلام بالهدى والنور وأقام حضارة مشرقة طالما تمسك الناس بدستور الإسلام وتحقق قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم «تَرَكْتُ فِيكُم مَا إِن تمسكْتُم بِه لَن تَضِلُّوا أبدا أمْرًا بينَا كِتَابَ اللَّهِ وسُنَّتِى...» وحين خفت قبضة الناس عن كتاب الله وسنة نبيه ونسوا الله فأنساهم أنفسهم دارت عليهم الدوائر وولت أيام عزهم التى كافأهم الله بها حين كانوا حقا مؤمنين حيث قال الله تعالى :«وللَّهِ العِزَّةُ ولرَسُولِه وللمُؤْمِنين»[١] وقول الله تعالى «وَلينصُرنَّ اللَّه منْ ينصُرهُ...»[٢].

وحين انحرفوا عن طريق الحق ومالوا إلى الدنيا والمظاهر وتركوا الجوهر كان لزاما على أصحاب الرأى والعدول من الناس أن يلفتوا أنظار سواهم من البشر إلى ما يجب أن يلتفتوا إليه من الهدى والرشاد والمبادئ القويمة وإذا كان الناس اليوم يستشرفون إلى المناصب العليا والدرجات المثلى من أجل منافع دنيوية ومظاهر زائلة ويبذلون من أجل ذلك أموالا طائلة يستثمرونها اليوم لتدر عليهم بالسلطان غدا، فإن الأمر بالنسبة للخليفة الأول كان بعكس ذلك تماما...

فهو كما يقول الشاعر إضافة لماسبق قوله :

وحَتَّى يَرَوْا أنَّ الخِلافَةَ لَمْ تَكُنْ
مَظاهِرَ فِى إبَّانِهَا ومَرائِيَا[٣]
وإنَّكَ لَمْ تَرْقَ الخِلافَةَ بالغِنَى
ولا السِّنِّ لكنْ بالنُّهى كُنتَ راقِيَا[٤]

---

(١) سورة المنافقون الآية ٨.

(٢) سورة الحج الآية ٤٠.

(٣) أولها.

(٤) العقل

ويتبين من خلال الأبيات أن الخليفة الأول لم يرق الخلافة لمنفعة دنيوية بل لنصرة الدين الحق ولم يكن بحثا عن المظاهر الكاذبة والمنافع الزائلة، بل إنه رضى الله عنه لم يرق الخلافة لكونه غنيا موسرا ينفق المال بسخاء على المريدين من أجل أن تشتد سواعدهم بالتصفيق له وتقوى حناجرهم على الهتاف بحياته وافتدائه عند اللزوم، ولا لكونه أكبر القوم سنا، بل إن أعظم المقومات التى أدت بهذه الشخصية العظيمة إلى تحمل تلك الأعباء الجسام هو الإيمان الصادق والتصديق لكل ما جاء به الرسول الكريم وتوج ذلك كله عقل راجح وتفكير سديد وكياسة وفطانة وماشئت من فضائل وأخلاق الرجال العدول، والشاعر من خلال الشعر يبين أن الخليفة الأول كان يرجو الفاروق فى تولى أمر الخلافة ويؤثره بها وأن الفاروق رضى الله عنه هو الآخر آثر بها الصديق لما له من سبق فى الإسلام ولا غرو فقد كان كل منهم يؤثر اخاه فى الإسلام على نفسه عملا بقول الله تعالى «وَيُؤْثِرونَ عَلَى أنفُسِهِمْ ولَوْ كَانَ بِهِم خَصَاصَة»[1] ولا محاباة ولا مجاملة بل إنه الحق يعيشون فى ظلاله، ويكيفون حياتهم من خلاله، فهم قد قرأوا قول الله تعالى وطبقوه قولا وفعلا فى حياتهم و«الحقُّ أحَقُّ أنْ يَتبَع...»[2] وبذا كان هذا الاختيار العظيم لذلكم الشخص الكريم فقد كان اختيارا جد موافق لأهله ومصادف لمحله....

---

(١) سورة الحشر الآية ٩.

(٢) سورة الآية

من صفات الصديق

يقول الشاعر مجسداً سمات الصديق :

لِسَانٌ بِغَيدِاقِ الفَصَاحَةِ نَاشِـــرُ
على السَّمعِ مِنْ زهْرِ الرَّبيعِ نوادِيًا (١)
يُحرِكُ مِنَ آذانِ قومٍ قُلوبَهُـم كما حَرَكتْ أيدِي الرِّجَالِ العَوالِيَـا
وماهُوَ إلا الحقُّ نبهتَ صوتَـه فقامَ لَهُمْ عَن جانِبِ القلْبِ حَاكِيَـا
لِسَانٌ أجلَّتْهُ قُرَيش وأكبَرتْ مَصَرْفه عَنْ أن يَكُـونَ محَابِيَـا
إذا الحَـقُّ حَالَـت جونَـة دونَ شَمسِـه
رأَوا قبَسًا مِنهُ إلى الحَـقِّ هَادِيا (٢)
أو ارتفَعَـتْ أيْـدٍ وضجَّـتْ مشَاهِـدٌ
أقَامُوا بِتَيمِ اللَّـهِ للشَّكِّ جَالِيَـا

لقد كان العصر الذى أرسل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة هو عصر اكتمال فصاحة العرب وبلاغتهم، وبلغ الناس فى ذلك مبلغا عظيما وكان منهم من تميز فى ذلك وبز سواه، ولكن الطابع العام كان الفصاحة والبلاغة وكانت رسالة الرسول الكريم تحديا لهم بالقرآن الكريم أن يأتوا بمثله أو بآية منه فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا وتكررت فى القرآن الكريم آيات تحدى القرآن الكريم للمشركين فى محاولات لإفحامهم وتنويرا لأبصارهم علهم يثوبوا إلى رشدهم ويسلكوا الجادة بعبادة الله تعالى وإفراده بالعبودية والوحدانية، دون سواه تعالى من معبودات وإذا كان المشركون وهم فى قمة الفصاحة والبلاغة لم يستطيعوا أن يأتوا بمثل القرآن الكريم أو بأقل آية منه فإنهم إضافة إلى ذلك عاندوا وجحدوا ووقفوا فى وجه الدين

---

(١) غيداق الفصاحة : جزالتها وعذوبتها.

(٢) جونة : ظلمة.

الإسلامى كافرين ومنكرين إلا قليلا منهم قد اهتدى بفطرته إلى الدين الإسلامى لما فيه من خير كثير للبشرية جمعاء وهؤلاء المهتدون إلى الإسلام كانوا أيضا فصحاء بلغاء وكان لفصاحتهم وبلاغتهم وحسن خلقهم دور كبير فى دعم مسيرة الإسلام والمسلمين وفى تقوية دوره وإيصال معانيه ومفاهيمه إلى الناس، وكان من أول هؤلاء الصديق أبو بكر، فقد كان لما اشتمل عليه من سمات عظيمة وسجايا نبيلة إضافة إلى فصاحته وحسن بيانه وحلاوة منطقة وكل ذلك استطاع به الصديق أن يساعد باقتدار منه على أن ينشر بين الناس مبادئ الإسلام السمحة بين أهل مكة حيث قد أثر أن سيدنا أبا بكر رضى الله عنه كان له مجلس يجتمع به الكثير من الناس من أجل المؤانسة والإمتاع والسمر وبعض ما كان من علوم آنذاك إضافة إلى الجود بالطعام، فلما أسلم الصديق رضى الله عنه تبعه فى إسلامه كل من كان يجالسه»[1].

وهكذا أثمر جود الصديق وعلمه فى إقناع الكثيرين من أهل مكة فى الدخول فى الإسلام، كما كان لسيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه دوره المهم فى نشر الدين الإسلامى ومناصرة الرسول الكريم، منذ بدء الدعوة الإسلامية كما أنه قد أسهم إسهاما عظيما بكل ما أوتى من مقومات الحياة فى سبيل الله، فكان منه الإيمان بالرسول الكريم كأول رجل دخل فى الإسلام كما كان منه أيضا تصديقه للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فى كل ما كان يخبر به عن السماء حتى سماه الرسول الكريم بالصديق، كما كان منه تبرعه بالكثير والكثير من ماله من أجل نصرة الإسلام وحماية الأرقاء والمستضعفين وعتق الكثير منهم ليصيروا أحراراً يشدون من أزر الإسلام ودعوته بعد أن كانوا مستذلين مستضعفين.

---

(١) مصادر الشعر الجاهلى- د. ناصر الدين الأسد ص ٥١.

وها هو شاعرنا يتحدث عن أبى بكر الصديق وجهوده فى نشر الإسلام فهو حلو اللسان عذب المنطق، يجذب إليه الكثير من الرجال متأثرين بحلو منطقة وعذب حديثه وصدق مقولته، وتبع ذلك كثرة الداخلين فى الإسلام بعد أن تفتحت آذانهم ووعت قلوبهم عن اقتناع منهم لصدق ما يخبر به الصديق رضى الله عنه عن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم عن ربه جل وعلا... ولقد كانت له منزلته العظيمة بين قومه من قريش، وكان منها موضع الإعجاب والإكبار وانتفت من أحكامه بعد تقلده زمام الدولة الإسلامية مظاهر الجور والمحاباة كما كانت صفاته قبلها... بل وشهد له الكل بالعدل والإنصاف، وفى معضلات الأمور، وحين تدلهم الخطوب، وتحول دون الوصول إلى الحق كثير من العضلات والفيوم يكون منه الرأى الصواب والضوء الثاقب الذى ينير جوانب الظلمات ويمحو الشك والضلال فى روية وسكون....

والأمر الذى لاشك فيه أن الرجال مواقف، وسيدنا أبو بكر رضى الله عنه كان بحق - رجل المواقف الصعبة التى لم يكن ليجدى فيها سواه والتاريخ خير شاهد وأعظم برهان على صدق ما أقول...

ومن تلكم المواقف العظيمة والأحداث المهمة فى التاريخ الإسلامى والتى كان للصديق دور مهم فى تثبيت حقيقتها فى أذهان الكثيرين وتصديق الرسول الكريم فيما أخبر عنها حادثة الإسراء والمعراج...وهى حادثة معروفة تحدث القرآن الكريم عنها وسمى سورة باسمها وهى سورة الإسراء... وكان القصد منها كما قال العلماء أمورا عدة فمنها التسرية عن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وإشعاره بمكانته عند ربه جل وعلا خاصة بعد وفاة عمه أبى طالب وزوجته السيدة خديجة رضى الله عنها وقد كانا خير سند ومعين للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فى دعوته وطالما كانوا يدفعون الأذى عن الرسول الكريم ويواسونه بأنفسهم ويعينونه وأتباعه

بأموالهم وحين رحلا عن الحياة الدنيا اشتد حزن الرسول الكريم عليهما، كما اشتد إيذاء المشركين للرسول الكريم حتى قال الرسول صلى الله عليه وسلم «مَالقيتُ مِنَ أذَى المُشْرِكينَ حتّى مَات أبُو طَالِب» وحق للرسول الكريم أن يسمى العام الذى مات فيه أبو طالب والسيدة خديجة رضى الله عنهما بعام الحزن لذا كانت تلك الرحلة تسرية عن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وترويحا لقلبه جزاء مالقي من عناء وفراق أحبابه، ثم لاطلاعه على مالم يكن يعلم، والاحتفاء بشخصه الكريم فى الملكوت الأعلى وتكليفه بالتكاليف الشرعية من قبل المولى جل وعلا ليبلغها إلى البشر ثم لبيان منزلته عند الله تعالى ومقدار محبة الله تعالى له، كما أنها كانت اختبارا لقوة إيمان المؤمنين ومدى تصديقهم لنبيهم عليه الصلاة والسلام.

لقد أسرى بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس ثم عرج به إلى السموات العلا فى ليلة واحدة، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد انتهاء رحلته المباركة تلك وأخبر الناس بما رأى وشاهد خلال رحلته إلى السموات العلا والملأ الأعلى، وكان من جراء ذلك أن انقسم الناس عامة مسلمين ومشركين إلى فريقين، فمنهم من هدى الله قلبه إلى الإيمان وأيقن بصدق مايقوله الرسول الكريم حول أمر الإسراء والمعراج، ومنهم من شقى بعقله وكفر بعد إيمانه فارتد عن الدين بعد أن سمع ما أخبر به الرسول الكريم من أمر الإسراء والمعراج، وقال بعض المكذبين من المشركين لأبى بكر الصديق «مالنا نضرب أكباد الإبل إلى الشام مسيرة شهر ويذهب صاحبك ويعود فى نفس الليلة...!! أما الصديق فقد كان رده عليهم بأنه إن كان قال ما قال فقد صدق فى كل مايقوله .. فسمى لذلك الصديق، وكان موقفه رضى الله عنه من هذا الأمر سببا فى الإبقاء على إيمان من بقى على إيمانه من المسلمين، وتأتى الآيات مؤكدة صدق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وتأييد الصديق له ولقد كان الله تعالى مع رسوله فى هذا الحدث

المبـارك فى وقت إنفـاذه وبعـد عـودته إلى مكة، وتجلى ذلك فى إخـبـاره السائلين عن أمارات أراها له رب العزة جل وعلا - رأي العين، فمنها قافلة المكيين التى أراها الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم أثناء مسراه وخبر الجمل الذى أنفلت شاردا عن القافلة وكذا لونه وما يحمله وفى محاولة من المشركين لتكذيب الرسول الكريم أخذوا يسألون رسول الله صلي الله عليه وسلم عن أشيـاء عـديدة منهـا بيت المقـدس الذى جلاه الله تعـالى له أمـام عينيه فأخذ يصفه لهم ويجيب عن أسئلتهم لايخطئ فى وصف من أوصافه، ولا يتأخر فى الإجابة عن سؤال سألوه إياه.. وجاء الخبر أيضا فى قرآن يتلى إلى قيـام الساعـة مخبـرا ومصـدقا قـول الرسـول الكريم قـال الله تعـالى : «سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيلاً مِنَ المَسْجِد الحَرَامِ إِلى المَسْجِد الأَقْصَى الذى بَارَكْنَا حَولَهَ لنرِيه مِنْ آياتِنا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ البَصِير»(١).

فالعاقل المهتدى من إذا نظر فى هذه الآيات الكريمة علم أن هذا الأمر بالله تعالى ومن الله وليس للرسول الكريم دور فى ذلك الحدث الجلل، إلا أنه قد أسرى به من قبل الله تعالى...

ثم توالت الآيات مؤكدة صدق الرسول الكريم فى دعواه قال الله تعالى :«والنَّجْمِ إِذَا هَوَى. ماضَلَّ صَاحِبُكُم وَمَا غَوى، ومايَنطِقُ عَنِ الهَوَى، إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى، عَلَّمَهُ شَدِيدُ القَوى. ذُو مِرةٍ فَاستَوى. وهُوَ بالأُفقِ الأَعلى ثُمَّ دَنا فَتَدلَّى فكَانَ قَابَ قوسَينِ أو أدنَى فأوحَى إِلى عَبدِهِ مَا أوحَى مَاكَذَبَ الفؤَادُ مَا رأى. أفتُمَارُونَه عَلى مَايرَى، ولقَد رآهُ نزلةً أخْرَى. عِندَ سِدْرةِ المنتَهى. عِندَها جنةُ المأوى. إِذ يغْشَى السِّدرَةَ مايَغشَى. مَازاغَ البَصَرُ وَمَاطغَى. لقَدْ رأى منْ آياتِ ربِّه الكبرَى...»(٢).

---

(١) سورة الاسراء الآية (١).

(٢) سورة النجم الآيات الآية ١-١٨.

والآيات واضحة الدلالة فى تبرئة الرسول الكريم من الزيغ والضلال والهوي كما أنها واضحة فى تصديق دعوته وفى كل مايتعلق بها مما أخبر به عليه الصلاة والسلام كما أنها واضحة الدلالة أيضاً على أن كل شئ قد تم بإرادة الله تعالى وإذنه ولم يكن للرسول الكريم من جهد فى ذلك إلا اختيار الله تعالى له وقيام الحدث به بمشيئة الله تعالى وإرادته وبالرغم من الصراحة والوضوح فى الآيات بأن أمر تلك الحادثة كان بيد الله تعالى إلا أن الكافرين لجوا ومارووا فيها اتهاما للرسول الكريم وتكذيبا له...

وكأنى بهم وقد أتوا الصديق ضاحكين مستهزئين قائلين له : انظر صاحبك يدعى أنه قد ذهب إلى بيت المسجد ثم عرج إلى السموات العلا وشاهد ما شاهد ثم عاد فى نفس الليلة، وكان منهم لذلك العجب والدهشة وقد وقر فى أذهانهم ذلك قياسا على محدودية عقولهم ونسوا الله فأنساهم أنفسهم...» ولكن الصديق أبا بكر زكى قول الرسول الكريم وصدقه فيما بلغه عن ربه جلا وعلا يقول الشاعر :

أهابَ رِجَالاتٌ به يومَ نُبِّئُوا ... وقَالُوا أَلم تنظُرَّ نبيكَ سَارِيا
فَصلَّى بِنَ فِيهَا وكلَّم ربَّهُ ... وأصبَح فِى بَطحاءِ مَكةَ داعِيا
أيطوِى إلى أقصَى المَتِيقين ليلةَ ... ونَطوِى إليه أشهُرَا ولَيالِيا
ويأتِى بأخبارِ السَّماءِ وإننَا ... لنجهلُ قيدَ الشِّرِ مَا كانَ خَافِيا

كان هذا رأى الكافرين والمعاندين المكذبين بدعوة الرسول الكريم ولكل مايتعلق بها ولم يهتدوا بعقولهم إلى أن الأمر يتعلق بقدرة الله تعالى فإن الرسول الكريم لم يكن منه إسراء بذاته بل بقدرة الله تعالى كما أخبرت الآيات وقاسوا الأمر بقدراتهم المحدودة ونسوا قدرة الله القوي القدير...!!

أما أبو بكر الصديق فقد قال للمنكرين والشاكين إن كان قد قال ما أخبرتم به فقد صدق ولقد كان لهذا الموقف أثره فى تثبيت إيمان المؤمنين ويعبر الشاعر عن ذلك فيقول :

فزكَّى أبُو بكرٍ وصدَّق قولَهُ
ومنْ قَالَها حاشَاهُ ظَنَّ مُداجِيَا
ولولاهُ لا ارتَدَّ الفريقُ الذى اهْتَدَى
وعطَّلَ مِنْ جِيدِ النُّبوةِ حَالِيَا
وأصبحَ صوتُ الحقِّ فِى الأرضِ خافتَا
وأصبحَ وجهُ الحقِّ فِى الأرضِ كَابِيَاً

وهذا هو دوره فى هذا الخطب المدلهم الذى حاق بالدعوة الإسلامية الوليدة من جراء حادثة الاسراء والمعراج ولكن الصديق كان نعم السند والعون فى تثبيت أركانها وتلك كانت يد بيضاء أسداها الصديق إلى الإسلام، ولايقف الأمر عندها بل كانت له أياد بيضاء عديدة يصور الشاعر ذلك فيقول :-

فسائِلْ بِه الآياتِ كم حفظتْ لَهُ
عَلَى الدينِ من بعدِ النبىِّ أيَادِيَا
يُطِلُّ أبُو بَكرٍ بكُلِّ صَحيفةٍ
عليكَ مِن القرآنِ إن كنتَ تَالِيَا

فما أكثر المواقف العظيمة والأيادى الكريمة التى كانت للصديق رضى الله عنه فى حياة الرسول الكريم، وبعد انتقاله عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى كان الصديق هو القائم بالأمر من بعده وأرسى دعائم المجتمع بدستور الاسلام بما اشتمل عليه من القرآن الكريم وسنه الرسول الكريم واجتهاده وبمشورة الصحابة من حوله.

الصديق وبلال بن رباح

جاء الإسلام ودعا الرسول الكريم الناس للدخول فيه وكان أكثر من استجاب لدعوته المستضعفين والأرقاء، وحين رأى كفار مكة أن كثيرا من عبدانهم قد فارقوا دين الشرك، وآمنوا بدعوة الدين الجديد ساموهم سوء الخسف وأذاقوهم أشد ألوان العذاب وسقط منهم الشهداء حال تعذيب الكفار لهم، وكان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يخفف عنهم مايقاسونه من العذاب ويمسح جراحهم ويخفف آلامهم ويبشرهم بنعيم الله تعالى وكان مما ناله عظيم الأذى وأقساه بلال بن رباح وكان عبدا حبشيا مملوكا لأحد صناديد قريش، وحين علم سيده بإسلامه ألحق به العذاب والنكال كى يرتد عن دينه ولكن هيهات أن يؤدى ذلك إلى ما يريده المشركون بل إن ذلك العذاب لم يزد بلالا إلا تمسكا بدينه وقوة فى عقيدته، فلم يكن من مولاه المشرك زيادة فى النكاية والعذاب- إلا أنه كان يلقيه وقت الهاجرة على بطحاء مكة، ليحترق جلده بنار الشمس المحرقة فى تلك الأوقات كى يرتد عن دينه ويعود إلى عبادة الأصنام، ولكن هيهات فلم يكن منه تجاه كل هذا العسف والظلم والعذاب إلا ازدياد اليقين وقوة الإيمان، وحين رأى أبو بكر الصديق حال بلال وما آل إليه مآله من العذاب والنكال فى شتى صوره، افتداه بماله وأعتقه ابتغاء مرضاة الله تعالى كى يسلم هذا الصحابى العظيم من الأذى وليكون قوة فى بناء الصرح الإسلامى العظيم، وها هو الشاعر يصور ذلك فيقول :

أُرِيَتْ بِلالاً والسِّياطُ كأنَّها ... مَدالِعُ نارٍ تترُكُ الماءَ ذاكِيا

إذا حَميتْ أذنابُها ما تلمَّستْ ... مَقابِضُها دونَ الفِرارِ أمانِيا

تسيلُ دمًا حتّى كأنَّ بجِلدِها ... جُروحًا متى أنكئنَ سِلْنَ دوَامِيا

وُروحُ بِلالٍ قابَ قوسَينِ من نَوًى ... توَدِّعُ مِن أطلالِ جسْمٍ بوَالِيا

يقربه من رحمة الله حينها ... ويزداد بالإقصاء منه تدانيا
وإيمانه صحت المنية راسخ ... إذا زحمته تنل منه راسيا
فلما أفاض النفس إلا صهابة ... إذا ما رآها الموت لم يدر ماهيا

كان هذا حال الصحابى الجليل بلال بن رباح ومالاقاه من شتى ألوان العذاب والنكال، ولكن أبى الله تعالى أن يتركه يقاسى ما يقاسى فى سبيل نصرة دين الله تعالى، فقيض الله تعالى له الصديق ليعتقه ويفتديه بالمال لينعم بالحرية ويعبد الله تعالى حق عبادته وكان ذلك خيرا لبلال بالحرية كما كان أيضا خيرا للصديق من حيث كونه عمل يتقرب به إلى الله تعالى عملا بقوله تعالى :«وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا...» ويصور الشاعر ذلك فيقول :

أظلت عليه رحمة الله من يد ... ترى البرق فى ديباجة الغيث دانيا
رأى نور عيش فى ظلام منية ... يلوح أبو بكر به متهاديا
تعرض ما بين الحمام وبينه ... وكان له فى الله بالمال فاديا
كريم يرى مافى يد الله فانيا ... وليس يرى مافى يد الله فانيا

وحقا كان الصديق رحمة من الله لأمثال هؤلاء المستضعفين والأرقاء والذين ذاقوا أقسى ألوان العذاب والتكال لإيمانهم بالدين وكانت بشارة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لهم بالجنة فى قوله صلى الله عليه وسلم وهو يمر عليهم حال مقاساتهم صنوف العذاب.. صبرا آل ياسر موعدكم الجنة.. أبشروا آل عمار وآل ياسر فإن موعدكم الجنة» وكان ذلك شأنه عليه الصلاة والسلام مع كل المعذبين بدينهم، كما كانت أموال الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ومساندتهم لهم والشد على أيديهم ومحاولة دفع الأذى عنهم هى البلسم الشافى لآلامهم والعلاج.. الناجع لكل جراحهم واليد الحانية التى كانت تمسح دموعهم.

الصديق وغزوة تبوك

كانت غزوة تبوك فى شهر رجب من السنة التاسعة من الهجرة وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك فى زمن عسرة من الناس وشدة من الحر، وجدب من البلاد..

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يخرج فى غزوة إلا كنى عنها، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذى يقصد له إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه بينها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو الذى يصمد له ليتأهب الناس لذلك أهبته، فأمر الناس بالجهاز وأخبرهم أنه يريد الروم(١).

ومن أجل ذلك سارع كل قادر على حمل السلاح بالانضواء فى صفوف المجاهدين، كما سارع المقتدرون ليقدموا الأموال للرسول الكريم ليجهز جيشه لملاقاه الأعداء لم يتوان عن ذلك نقى الإيمان، ولم يفت ذلك أبا بكر فقد قدم نفسه جنديا شجاعا فى ميدان القتال كما قدم من أمواله الكثير حتى قيل إنه لم يترك لأولاده إلا النذر اليسير وفى سؤال من الرسول الكريم عما أبقاه لأهله كان جوابه: أبقيت لهم الله ورسوله، وكفاهم الله أمرهم بقدرته وإرادته يقول الشاعر :

وَيَوْمَ تَبُوكٍ لَمْ تَذَرْ لِعُسْرِسٍ ... مِنَ الزَّادِ مايَكْفِيهِ إِذْ سِرتَ غَازِيَا
تَدفقتَ لَم تَتْرُكَ لِبَعضِكَ فَطرَةً ... فَبَعضُكَ أَمسَى مِنكَ حَرَّانَ صَادِيَا
وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ أَهلك فاكْفِهِمْ ... فَقُلْتَ أَلِيسَ اللَّهُ دُونِي كَافِيَا

وهكذا يكون خلق المؤمن الحقيقى الإيمان الواثق بالله تعالى حق الثقة واليقين.

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام- عبد السلام هارون ص ٣٢٢.

الصديق وصحبة الرسول الكريم فى الهجرة

لقد كانت هجرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة بأمر من الله تعالى وكانت بذلك فتحا ونصرا مبينا للدين الإسلامى.. ولقد تحمل المسلمون الأذى فى مكة ثلاثة عشر عاما، وهاجر كثيرون منهم إلى الحبشة مرتين فرارا من بطش المشركين وكان ذلك بتوجيه الله تعالى ومع اشتداد الأذى وقلة الناصرين، أراد الله تعالى للإسلام أن تتسع آفاق دعوته، وترفرف على الدنيا رايته، فكان لقاء الرسول الكريم مع أهل يثرب ومبايعتهم له صلى الله عليه وسلم بيعتين متتاليتين ضمانا لحمايته ونصرته، ثم كانت هجرة الصحابة والمستضعفين إلى يثرب فرادى وجماعات فى سرية واستخفاء فرارا من الأذى، وظل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ[٢]... قول الله تعالى«وجَعَلنَا مِنْ بَينِ أيدِيهم سدا ومِن خَلفِهم سدًّا فأغشَينَاهُم فهم لايُبصِرُون»[٣].

وأخذ صلى الله عليه وسلم حفنة من تراب وطيرها فى الهواء فحطت على رءوسهم فعميت أبصارهم وخرج سالما لم يمسسه أذى منهم وتحقق لـــه

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ص ٣٢٤- عبد السلام هارون.

(٢) سورة يس الآية ٩.

(٣) ألبسنا أبصارهم غشاوة.

قول الله تعالى ..«واللَّهُ يعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ»[1]ثم دلف وصاحبه إلى غار ثور، ومكث به ثلاثة أيام كانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما بالزاد، كما كان عبد الله بن أبى بكر يتسقط أخبار أهل مكة ويبلغها لهما وكان عامر بن فهيرة يعفى بأغنامه على آثار أقدامهما، وظلا كذلك ثلاثة أيام حتى انقطع الطلب عنهما ولقد ظل المشركون يجوبون أقطار مكة ويفتشون عن محمد وصاحبه فى شتى شعابها وطرقات الجبال والسهول فيها ورصدوا الجوائز لمن يعثر على محمد وصاحبه مائة ناقة...

وحين كان الرسول الكريم والصديق مختبئين فى غار ثور اقترب المشركون من فم الغار الذى يختبئ فيه النبى وصاحبه، ولكن الله تعالى كان قد جند جنده لحمايته من أن تناله أيدى المشركين حين جعل العنكبوت ينسج خيوطه على فم الغار والحمام يعشش هو الآخر لينام مستريحا على مدخله وقد أغلق باب الغار على من فيه حتى يوهم من يرى ذلك أن الغار لم يلجه والج منذ زمن بعيد ولقد سمع الرسول الكريم وصاحبه حوار المشركين مع بعضهم البعض حين هم أحدهم بدخول الغار باحثا عن النبى وصاحبه، ولكن عناية الله تعالى قد جعلت آخر يقول له مثبطا عزيمته وحاميا فى نفس الوقت رسوله عليه الصلاة والسلام : إن عليه العنكبوت من قبل أن يولد محمد...!!

وفى تلك اللحظات الحرجة كان الصديق رضى الله عنه يرتجف خوفا من أن يلج المشركون عليه الغار وحينئذ فزع قائلا : يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه لرآنا، فيقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما...!!

---

(١) سورة المائدة الآية ٦٧.

وقد أخبر الله تعالى وأنزل بذلك قرأنا يتلى إلى قيام الساعة، قال الله تعالى :«إِلاَّ تنصرُوه فقَدْ نصرَهُ اللهُ إذ أخرجَه الَّذينَ كفرُوا ثَانِى اثنينِ إذْ هُمَا فى الغَارِ إذ يَقُولُ لصَاحِبه لَا تحزَن إنَّ اللَّهَ معَنَا، فأنزلَ اللَّهُ سَكِينَتَه علَيه وأيَّده بجُنودٍ لم تَروهَا وجَعَل كَلِمَةَ الذينَ كَفرُوا السُّفلَى وكلمةُ اللهِ هىَ العُليَا واللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»(١).

وهكذا كان الصديق أبو بكر رضى الله دائما فى خضم الأحداث والأخطار خير رفيق للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

يقول الشاعر:

وَهاجَر فاستَنْدَى المحبَّةَ صَاحِبَا
مَع الخطبِ طلَّاعَا على العَهْدِ وَافيَا
تَقدمتَه فِى الغَارِ تستقبلُ الأذى
كذلكَ صَدْرُ الرمْح يلقَي العَواديَا
فنَامَ ووعْدُ اللهِ يؤنِسُ قلبَه
وخلَّفَ يقظَانَاً مِن الحزنِ باكِيَا

وكم كانت فرحة الصديق بصحبة الرسول الكريم فى الهجرة إلى يثرب رغم الخطوب والأخطار والشدائد التى تستتبع الهجرة، ولكنه الحب للرسول الكريم والوفاء بالعهد، ويالها من محبة وياله من وفاء وافتداء...

لقد تقدم الرسول الكريم وصاحبه الصديق إلى غار ثور يحتميان به من أذى الكفار، وكلنا يعلم ما قد يكون بالصحراء والجبال والكهوف من حيوانات مفترسة أو هوام وحشرات تلحق الأذى بمن يقف فى طريقها أو يحاول الاقتراب منها ومن شدة حب الصديق لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان هو أول من دخل إلى الغار أولا ليتحسسه ويقف على مافيه من

---

(١) سورة التوبة الآية ٤٠.

هوام وحشرات ليقضى عليها وليؤمن مكان الرسول الكريم فى الغار وليطمئن على أنه لن يمسه أذى من داخله، وحين اطمأن لذلك دعا رسول الله كى يدخل الغار بعد أن اطمأن إلى خلوه من الأذى...

ونام الرسول الكريم وعين الصديق حارسة له، وماهى إلا حظرة حتى روع الصديق بأفعى تقترب من الرسول الكريم فلم يملك أبو بكر الصديق إلا أن تصدى لها وحاول إزاحتها عن الرسول الكريم بقدمه، وحينئذ لم يكن من الأفعى إلا أن عضته بأنيابها، ويؤلم ذلك الصديق فيبكى بلاصوت، وتسيل منه الدموع أنهارا تتساقط على وجه الرسول الكريم حال كونه نائما فيهب الرسول مستيقظا ويمسح على جراحه ويتفل على مكان عضة الأفعى، فينشط الصديق معافى قداطرح الألم والشكاة.

يصور الشاعر ذلك فيقول :

تَقدمَّتَه فِى الغَارِ تستقبِلُ الأذى
كذلِك صَدْرُ الرمْحِ يلقَي العَوادِيَا
فنَامَ ووعْدُ اللَّهِ يؤنِسُ قلبَه
وخلَّف يقظَانَا مِن الحُزْنِ بَاكِيَا
إذا لدغتْكَ الجِنُّ ألفتْكَ صَابِرا
علي السَّمْ تخشَى أنَ تروَّعَ غَافِيَا
ولم يبقَ مِنكَ الوهنُ إلا أصابعَا
فألقمتَها دُونَ النبِىِّ الأفَاعِيَا
وما انتبهَتْ عيناهُ لولا تساقَطتْ
دُموعُ أبِى بَكرٍ عَليهِ هَوامِيَا

والأبيات صورة من صور التضحية والفداء قام بها الصديق أبو بكر حسبة وابتغاء وجه الله تعالى ونصرة للدين الحنيف ومحبة للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

الصديق فى غزوة بدر

حين علم الرسول الكريم أن أبا سفيان بن حرب مقبل من الشام فى عير لقريش عظيمة، فيها أموال لقريش، وتجارة من تجاراتهم، وفيها ثلاثون رجلا من قريش أو أربعون منهم مخرمة بن نوفل وعمرو بن العاص، وندب المسلمين إليها وقال : هذه عير لقريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها فانتدب الناس، فخف بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى حربا...

وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار ويسأل من لقى من الركبان تخوفا على أمر الناس، حتى بلغه خبر استنفار محمد لأصحابه من أجل تلك العير فأخذ حذره وأرسل فى طلب المدد والنجدة من أهل مكة وسلك طريقا يبتعد به عن أن تناوله أيدى المسلمين وبذا نجا من تعرض المسلمين لقافلته، فى الوقت الذى خرجت فيه قريش نجدة لأموالهم التى نجت من أن تنالها أيدى المسلمين، ولقد أرسل أبو سفيان إلى أهل مكة من يردهم إلى ديارهم فى مكة بعد سلامة قافلتهم ولكنهم أبوا إلا الحرب مع محمد وصحبه فى محاولة منهم للقضاء عليه وإسماع الدنيا بقوة المكيين وبطشهم حتى لايعترض طريقهم مرة أخرى معترض، ولقد كان من المكيين عقلاء نصحوا إخوانهم المكيين بالعودة إلى مكة وترك محمد وصحبه دون مناجزتهم وكفاهم ضياع ما خرجوا من أجله إلا أن رءوس الشر فيهم أبوا إلا الحرب...

وخرج الرسول الكريم بمن معه من المسلمين ولم تكن معهم عدة الحرب وأتاه الخبر عن مسير قريش ليمنعوا عيرهم، فاستشار الناس وأخبرهم عن قريش فكان من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين مهاجرين

وأنصار ما أثلج صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدخل السرور على نفسه ودعاه إلى أن يقول لأصحابه سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم...

ونزل رسول الله صلي الله عليه وسلم بدرا واستمع إلى مشورة أصحابه فى ميدان القتال حول سير المعركة والارتواء من الماء فى ميدانها وكانت كل آرائهم صائبة شفت نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم...

ثم بنى الصحابة لرسول الله صلي الله عليه وسلم عريشا يرقب منه المعركة ويوجه جند المسلمين منها وقال له المسلمون آنذاك: يا رسول الله نبنى لك عريشا تكون فيه ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك أقوام يانبى الله ما نحن بأشد لك حبا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ماتخلفوا عنك يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك...!![1].

واستحكم الأمر وعسكر المسلمون بالعدوة الدنيا والمشركون بالعدوة القصوى، وتناجز الجيشان وتزاحفوا وكان المسلمون قلة يدفعهم الإيمان إلى مجابهة الكفر والقضاء عليه إضافة إلى ذلك أنهم لم يكن معهم من أسلحة الحرب إلا السيوف بخلاف المشركين المدججين بالسلاح وحين اشتد أوار المعركة وعلا غبارها وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عريشة ورفع يديه داعيا ربه طالبا منه تعالى إنجاز وعده للمسلمين بالنصر ويقول فيما يقول :«اللهم إن تهلك هذه العصاية اليوم لن تعبد فى الأرض» وأبو بكر الصديق رضى الله عنه يقول : «يا نبى الله بعض مناشدتك ربك، فإن الله منجز لك ماوعدك..»

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام- عبد السلام هارون ص ١٤٨-١٥٧.

«وقد أخذت رسول الله سنة من النوم وهو في العريش ثم انتبه فقال: «أبشِر يا أبا بَكر، أتاك نصرُ اللّه! هذا جِبريل آخِذ بعنانِ فرس يَقوُده عَلىَ ثَناياَ النَّقع»، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس فحرضهم على القتال وقال : والّذى نَفسُ مُحمدٍ بيده لايقَاتِلهم اليَوم رجُل فيُقتَل صَابِرا محتَسِبا، مقبِلا غَيرَ مُدبِر إلا أدخَله اللّه الجَنّة...» ثم إن رسول الله صلي الله عليه وسلم أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل قريشا بها ثم قال : شَاهَت الوجُوه ثم نفَحهم بها وأمر أصحابه فقال شدُّوا فكانت الهزيمة، فقتل الله من قتل من صناديد قريش وأسر من أسر من أشرافهم»[1] وتحقق ماوعد الله رسوله والمؤمنين فانتصر المسلمون على المشركين الذين اندحروا إلى مكة مقهورين مهزومين، بعد أن خلفوا وراءهم سبعين صنديدا من صناديدهم قتلى وراءهم وقد أمر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بقتلى المشركين فواراهم المسلمون فى القليب وتجلت رحمته صلى الله عليه وسلم بهم بالرغم من كفرهم- فى ذلك ولم يتركهم فى الصحراء نهبا للسباع وجوارح الطير والحشرات تنهش لحومهم وكان ذلك منه رحمة بهم..

ولقد أخذ الرسول الكريم يناديهم قائلا: يافلان بن فلان ويافلان بن فلان لقد وجدت ما وعدنى ربى حقا فهل وجدتم ماوعدتم به؟ فقال له أصحابه يا رسول الله : أتنادى قوما قد جيفوا؟ فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم : «ما أنتُم بِأسْمعَ مِنهم لِكنّهُم لاَ يُجِيبُون...»

يقول الشاعر :

وَلمّا أرادَ اللّهُ نصْرةَ دِينِه ... بِبدرٍ رَأى الصّدِيق لِلدّينِ وَالِيا

---

(١) تهذيب سيره ابن هشام- عبد السلام هارون ص ١٦١-١٦٢.

وَقَفْتَ عَلَى بَابِ العَرِيشِ وَطَيِّهِ
سَنَى لم يَزَلْ فِى مَوطِنِ السِّرِ فَاشِيَا

أما موقفه من منازلة الأعداء فيقول الشاعر :

إذا ما اشرأبَّتْ هَامَةٌ مِن مَفَاضَةٍ
رأتْكَ عليهَا بِالمنيَّةِ هَاوِيَا

فالصديق فى ساحة الحرب فارس مغوار يطير الرءوس ويلصق الهام بالتراب بحد سيفه وسنان رمحه، ومن فرط الهول والفزع الذى يلحقه بالأعداء يكونون بالنسبة له، فراخ حمام أوقعها حظها العاثر فى طريق طائر مفترس لايلبث أن ينقض عليها ملحقا بها البوار والخسار، وفى الوقت الذى يوقع فيه بالأعداء ويلحق الردى بهم، فإنه يحمى حماه ويرد الأذى عن المسلمين ويدافع عنهم ويشهد له بذلك الأبطال المسلمون ممن شهدوا معه غزوة بدر واستقلوا عزائمهم وشجاعتهم بالقياس إلى شجاعته وعزيمته فى ميدان القتال وبلغ ببعضهم الحياء من قوته وشجاعته أنهم يستحيون أن يسلوا السيوف فى حضرته يقول الشاعر :

تَرُدُّ عُيُونَ السَّاهِمِينَ حسيره وتدفع مِن نَقْعِ المنيَّةِ هَايِيَا
وإن عَليا قَالَهَا فِيك قَولةً يُحلِّى بها الأمثالَ من كَانَ رَاوِيا
إذا ذُكِرَ الصِّدِيقُ فِى بَدرٍ صدَّنِى
حيائى منهُ أن أُسَلَّ حُسَامِيَا

وهكذا تكون عزائم الرجال وإخلاصهم وقوة عقيدتهم فى مناصرة الحق ومناهضة الشرك وبهمتهم وعزائمهم تبنى الحضارات وتعلو القيم الإنسانية، وترفرف رايات النصر عالية خفاقة على شتى البقاع...

الصديق وصلح الحديبية

هاجر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وسبقة المسلمون من مكة إلى المدينة وأقاموا مجتمعهم الإسلامى الناشئ الناهض على هدى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وآخى الرسول الكريم بين المهاجرين والأنصار وبدت فضائل الأنصار وأخلاقهم الكريمة فى محبتهم للمهاجرين وإيثارهم لهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وأوسعوا لهم فى معيشتهم مما يسر للمهاجرين بدء حياتهم الجديدة فى يثرب بيسر وسماحة ومحبة عوضتهم عن كثير من مظاهر حياتهم التي كانوا يحيونها فى مكة موطنهم الأول.. ولكن «حب الوطن من الإيمان..» ورسول الله صلي الله عليه وسلم كان أول من حز فى نفسه الكريمة خروجة من مكة موطنه حتى إنه ليقول عن مكة وهو يغادرها «واللَّهِ إنَّك لأحَبُّ بِلاَدِ اللَّهِ إلى اللَّهِ وأحَب بلاَد اللَّه إلىَّ ولولاَ أن قومَكِ أخرجونِى منكِ ماخَرَجت...» وكذا كان سائر المهاجرين كانوا قد خرجوا كارهين مفارقة وطنهم لولا طاعة الله ورسوله ونصرة الدين ولقد مكثوا ستة أعوام بعد الهجرة إلي المدينة المنورة وهم يشتاقون إلى العودة إلى مكة والبيت الحرام والطواف والاعتمار...

فأعلم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أصحابه بنيته فاجتمع المسلمون لذلك وخرج الرسول الكريم بالمسلمين من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة معتمرا وساق الهدى أمامه وليس معهم من أسلحة إلا السيوف فى أغمادها وأعلن فى الناس أنه لايريد حربا بل إنه قد خرج معتمرا ليس له من هدف إلا زيارة البيت الحرام ونحر الهدى والعودة مرة أخرى إلى المدينة المنورة.

وبالرغم من وضوح الهدف بعد خروج الرسول الكريم وهو زيارة البيت الحرام إلا أن قريشا كبر عليها أن يدخل محمد والمسلمون إلى مكة عنوة بعد أن خرجوا منها فرادى متسللين فجمع المشركون جموعهم وعزموا على صد مسيرة الرسول الكريم فى زيارته للبيت الحرام ومنعوا دخوله إلى مكة ونزل الرسول الكريم بالحديبية حيث بركت ناقته فقال الناس : خلأت الناقة، فقال صلى الله عليه وسلم : ما خلأت، وما هو لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لاتدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها، ثم قال للناس: انزلوا، فقيل له : يا رسول الله ما بالوادى من ماء ننزل عليه فأخرج سهما من كنانته فأعطاه رجلا من أصحابه فنزل به فى قليب من تلك القلب، فغرزه فى جوفه، فجاش بالرواء حتى ضرب الناس عنه بعطن»[1].

ثم إن قريشا أرسلت من وجهائها مع يستعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هدفه من زيارته مكة فأخبرهم بنيته في زيارة البيت الحرام وليس الحرب وحين عاد الرسل إلى قريش وأخبروهم بنية الرسول لم يعجب ذلك قريش وقالوا : وإن كان قد جاء لا يريد قتالا فلن نسمح له بأن يدخلها علينا عنوة أبدا، ولاتحدث عنا العرب بذلك. ثم أرسل عثمان بن عفان إلى أهل مكة فحبسته وأشيع بين المسلمين خبر مقتله وحينئذ دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة. ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو إلى رسول الله ليصالحه على العودة إلى المدينة هذا العام ولتكن زيارته للبيت من القابل وجاء سهيل بن عمرو وبعد أخذ ورد عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع سهيل صلح الحديبية وكتب

---

(١) تهذب سيرة ابن هشام- عن السلام هارون ص ٢٥١.

ذلك الصحابى الجليل على بن أبى طالب وربما أغضب الصحابة بعض ما ورد فى الصلح ولكن الصديق أبا بكر كان له دوره فى تهدئة الخواطر ومساندة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الأمر حتى تفهم عامة المسلمين حقيقة الأمر وأذعنوا لما أقدم عليه رسول الله من الصلح ورضوا كل بنوده إقرارا بوعد الله تعالى لهم بالنصر فى النهاية يقول الشاعر :

تَبينْتَ فى صُلحِ الحُدَيبيَةِ الهُدَى
وظَنُّوكَ فِيهِ للنَّبِىِّ مُجَارِبَا
فلمَّا تَجلَّى بعْدَ عَامٍ تشهَّدُوا
ونكَّبَ عنكَ السَّهْمُ من كَانَ رَامِيَا[1]

وربما كان قليل من المسلمين يرون الصديق مجاريا للنبى فى عقده لصلح الحديبية ولكن الحق تجلى فيما فعله الرسول الكريم وشايعه فيه أبو بكر الصديق بحنكته وعلمه حول هذا الصلح الميمون....

---

(١) نكب: عدل وتنحى.

الصديق فى موقف مرض الرسول الكريم ولحاقه بالرفيق الأعلى

حين مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ فقالت عَائِشَةُ : إن أبا بكر رجُلٌ أسيف إذا قام فِي مَقَامِك يا رَسُولَ اللَّه لايكاد يُسْمِع النَّاس «فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إِنَّكُنَّ صَوَاحِبَ يُوسُف... » ولم يكن اختيار الرسول الكريم لأبى بكر فى إمامة الصلاة إلا ليكون ذلك توجيها وإرشادا للمسلمين بأن يرضوا فى أمورهم فى الدنيا بما قد رضيه الرسول فى أمور الدين وكان هذا من الرسول الكريم مؤشر جيد على حسن اختيار خير خلف لخير سلف يقول الشاعر :

وَمَابَعْدَ ماقَالَ النَبِىَّ لِزوجِه وأعضَاؤُه ينْصِتَ للمَوتِ دَابِيَا[1]
مُريه يقُمْ بِالمسلِمين مصَليَا فإن كُنتَ فيهم أوْلاَ كانَ ثَانِيَا
فقالتَ أبوَ بَكر رقيقٌ فؤادُه إذا قَام بَين النَّاس هَاجَ البَواكِيَا[2]
فقَالَ أتأباه صَواحبَ يُوسُفٍ وغيرُ أبى بَكرٍ أرَى اللَّه آبِيَا
ولم يذكرنى قَبضَةِ الموتِ غيره[3] طَبِيبَاً لأدواءِ الإمَامَةِ شَافِيَا

وحين دنت ساعة لحاق الرسول الكريم بالرفيق الأعلى ويالها من صدمة ألمت بالمسلمين، وأى هول حاق بهم وزلزل كيانهم وتركهم حيارى تلهبهم نار فراق الرسول الكريم، ويجلل الحزن كيانهم، وهم لايكادون يصدقون

---

(١) دابيا: جاد فيه.

(٢) هاج البواكيا: جعل النساء يبكين.

(٣) أدواء: جمع داء وهو المرض.

وها هو الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه يهتاج كأسد ضار مهددا متوعدا من يقول بموت الرسول الكريم أن يضرب عنقه بسيفه وهو الحافظ لكتاب الله تعالى، إلا أن هول المصيبة أنسته بعض ما ورد فى كتاب الله تعالى وماذاك إلا لشدة محبته للرسول الكريم إلا أبا بكر فإنه بفطنته وحنكته بدا شامخا متماسكا لم ينسه هول المصيبة ما ورد فى كتاب الله تعالى فكان أشد جلدا وعزيمة من سواه.

يقول الشاعر :

(١) وَرِيعَ أبُو حَفصٍ بِمَوْتِ مُحَمَّدِ
فَهَاجَ كمَا استَعَدْيْتَ فِى الغِيلِ(٢) ضَارِيَا
فَقَالَ وربِّ البَيْتِ لَسْتَ بِمَنْثَنٍ
إذا قُلتُمُوهَا أو أقَطُّ النَواصِيَا(٣)
وأنسَاهُ هَولُ الخَطْبِ آيَةَ رَبِّه
وليسَ أبُو بَكْرٍ على الخَطْبِ نَاسِيَا

ما أعظم ما خلق الله تعالى ...!

عمر الفاروق أشد خلق الله تعالى فى الجاهلية والإسلام يزلزله خبر نعى الرسول الكريم، وهو القوى المكين، ولايكاد يصدق مايقال بل إنه يهدد ويتوعد من يقول بذلك، أما أبو بكر الصديق وهو من هو وربما كان أضعف بنية من الفاروق، إلا أنه كان أسبق منه إسلاما وربما أدرك بحسه وعقله

---

(١) ربع: خاف.

(٢) الفيل ضاريا: السبع الضارى فى أجمته

(٣) أقط: أقطع- النواحى : مقدم الرأس.

وقلبه قبل أن ينتقل الرسول الكريم إلى الرفيق الأعلى أن الرسول الكريم لابد مفارق الدنيا وكان للصديق هذا الفهم من خلال آيات بينات نزلت على الرسول الكريم بكى منها الصديق يوم أنزلت على الرسول الكريم، وحين حدث ماتنبأ به الصديق وحلت الفاجعة كان هو الأثبت على الحق والأقوى على تحمل الشدائد، والأوعى بما فى كتاب الله تعالى، وكان نعم القائد الراشد والمرشد فى دياجير الظلمات وفجاءة المدلهمات.

وإذا كان هذا الخطب الجلل قد أنسى الفاروق بعض ما ورد فى كتاب الله تعالى فقد وعى الصديق كل ما ورد فى كتابه تعالى وذكر الناس به وأضحوا وكأنهم يسمعون مايتلوه عليه الصديق من كتاب الله تعالى لأول مرة.وحين عمت الجلية والصخب والضجيج وعلا النحيب وعلا ذلك كله تهديد الفاروق بضرب عنق من يقول بوفاة الرسول الكريم لم يكن من الصديق إلا أن أمسك بيد الفاروق وخطب الناس قائلا :

أيها الناس : مَنْ كَانَ يعْبُدُ مُحَمدا فِإن مُحَمَدا قَدْ مَاتَ.....!!

ومَن كَان يَعْبُد اللّه فإنّ الله حَى لايمُوتُ ثم تلا هذه الآية : «ومَامُحَمَّدٌ إلا رسُولٌ قدّ خَلَت مِنْ قَبلِهِ الرُسلُ أفإن مات أو قُتِل انقلبتُم عَلَىَ أعقَابِكم ومَن ينقَلِب عَلىَ عقِبيْه فلنْ يضرَّ اللهُ شيئاَ وسيَجزِى اللَّهُ الشَاكِرين»(١).

قال : فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر الصديق يومئذ وسمعها الناس منه فانطلقوا يرددونها متصبرين بما فيها من معان وأحكام فقال أبو هريرة: قال عمر: فوالله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى وقعت إلى الأرض ماتحملنى رجلاي وعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات»(٢).

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٤.

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام- عبد السلام هارون ص ٣٩٣.

يقول الشاعر مصورا ذلك :

نُهَى لَم يَزِدْهَا الهَولُ إلاَّ حَصَانَـــةً
إذا ما زَعزَعَت مِنها الرِّياحُ رَواسِيَـا
فَلَمَّا استَبانَ الموتُ حِينَـــا بأيلِـــجٍ
مسَجًّى مِن الإشراقِ يحسبُ ضَاحِيَـا
أهابَ بِهم يَا قَـــوْمُ مَـاتَ محمَّـدٌ
وألقَى علَى شَطِّ الخلُـودِ المَراسِيَـا
فمنْ ظَنَّهُ رَبًّا فَقَـــدْ مَـاتَ ربُّـهُ
وإلا فَـإنَّ اللَّـهَ مـازَالَ باقِيَـا
وعَـادَ وجـرحُ الجاهليـةِ سَائِـلٌ
على جَانِبِ الإسلامِ أحمـرَ قانِيَـا

وهكذا حسم الصديق أمر وفاة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وثاب الناس إلى رشدهم، ليلتفوا إلى ما ينتظرهم من بلايا وهموم وأحداث جسام ينوء بحملها الجبال، ولكن الصديق رضى الله عنه تحمل تبعاتها- وكأن الله تعالى قد أعده لتلك الفترة العصيبة من تاريخ الأمة الإسلامية وكان بحق كما قيل: «جَذيلَها المحكَّك، وعُذَيقَها المرجَّب...»(١).

ولنا أن نسرح بخيالنا إلى تلك الفترة من الزمن لنرى حلكة السواد وحرقة الفراق التى ألمت بالأمة لفراق الرسول الكريم، والناس- فى معظمهم قريبو عهد بالجاهلية ويحن إليها بعض منهم، ودولة وليدة يحيطها الأعداء من كل مكان يتحينون الفرص للانقضاض عليها وماذا إذن يفعل الصديق فى هذا الخضم الزاحف والضاغط من تلك الهمـــوم، ولكنـــه وبكـــل الحـــق

---

(١) البداية والنهاية - ابن كثير جـ ١ ص٢٤٢.

والصدق كان خير سند ومرشد للأمة الإسلامية وكان الرجل المناسب فى المكان المناسب والأحداث والتاريخ خير شاهد وبرهان على صدق ما نقول.

يقول الشاعر :

نَهضَتَ بِأمرِ النَّاسِ والدِّينُ لم يَزل
رضيعًا بِأطرافِ الجزيرةِ حَابِيَا

ولولا أن الله قد قيض الصديق لأمر الأمة الإسلامية لحدث للأمة مالايحمد عقباه يقول الشاعر :

فلولاكَ عُلْتَ الأمرَ بعدَ محمدٍ لهدُّوا مِنَ الإسلَامِ مَا كَانَ بَانِيَا

وحقا كان الصديق هو الرجل المناسب للوقت والمكان المناسبين.. ومواقفه خير شاهد على ذلك كما أنها خير برهان على صحة تلك الدعوى فبعد أن عقد الرسول الكريم مع أهل مكة صلح الحديبية اتجه ببصره صوب الشام حيث قد رأى فيها صلى الله عليه وسلم مجالا لنشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية، لذا لم تمض على مقامه بالمدينة بضعة أشهر بعد عمرة القضاء حتى وجه النبى صلي الله عليه وسلم رسولا من قبله بكتاب إلى أمير - بصرى- من قبل هرقل يدعوه إلى الإسلام فترصد له فى الطريق من قتله، وكان رد الرسول الكريم أن أعد حملة لتأديب هؤلاء الغادرين، وكانت عدتها ثلاثة آلاف مقاتل وجعل اللواء فيها لزيد بن حارثة وأمره بالزحف إلى مؤتة، وقال إن أصيب فاللواء لجعفر بن أبى طالب وإن أصيب جعفر فاللواء لعبد الله بن رواحة...

وكان خالد بن الوليد مع الجيش الذى ودعه الناس، وسار النبى صلى الله عليه وسلم معهم خارج المدينة يدعو لهم بالنصر ويوصيهم بحسن المعاملة لمن لايقاتلونهم ولكن العدو كان قد علم بمسيرهم، فقام شرحبيل

الغسانى واستنجد بمن حوله من قبائل العرب المسيحيين، كما أمده «هرقل» بجيش كبير حتى بلغ عدد جيش الروم مائة ألف أو يزيدون، وحين علم المسلمون بعدد الأعداء تشاوروا فيما بينهم واستقر الرأى على خوض المعركة، واستشهد قادة جيش المسلمين واحدا تلو الآخر، حسب تقليد القيادة لهم من قبل الرسول الكريم فكان زيد بن حارثة فجعفر بن أبى طالب، فعبد الله بن رواحة..

وحين استشهد هؤلاء القواد أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوطئ جيشه أرض الروم بعد إعداد العدة لذلك، وجعل على رأس الجيش أسامة بن زيد، وكان عمره سبعة عشر عاما وجمع له جم غفير من خيار الصحابة تحت إمرته.. وما أن التأم شمل الجيش وتهيأ للرحيل والزحف إلى تخوم الشام، إذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يمرض ويؤدى ذلك إلى التمهل فى إنفاذ الجيش، ولكن سرعان ماالحق الرسول الكريم بالرفيق الأعلى قبل إنفاذ الجيش إلى مهمته...

ولنا أن نتخيل أثر تلك الفاجعة التى حدثت بانتقال الرسول الكريم إلى الرفيق الأعلى فى المجتمع الإسلامى بالمدينة حيث البلبلة والتصدع والحزن والتمزق لفراق الرسول الكريم ونهاية عصر النبوة بفضائله وخيراته وقدوم عصر انقطع الوحى فيه من السماء عن الأرض ولم يعد المسلمون يجدون بين ظهرانيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم...!!

وما أن انتهى المسلمون من مواراة الجسد الطاهر حتى كان أمر السقيفة وماحدث خلالها لينتهى الأمر كليا إلى تقليد الصديق أمر الأمة الإسلامية خليفة لرسول الله صلي الله عليه وسلم ليتفرغ إلى تسيير دفة الأمور فيها استنادا إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وما أثر عنه من قول أو فعل أو تقرير أو صفة دون وحى من السماء

انقطع بانتقال الرسول الكريم للرفيق الأعلى...!! ويالها من أعباء شاقة ومهام جسام تحملها كاهل الصديق ...!!

لقد كان من أولى الأمور إلحاحا بعد تولى الصديق زمام الأمور فى الدولة الإسلامية أمر جيش أسامة بن زيد المعبأ للخروج لغزو الشام بما فيه من خيار الصحابة وبعد وفاة الرسول الكريم أراد بعض المسلمين ألا ينفذ الخليفة بعث أسامة وربما كان ذلك تخوفا منهم على المجتمع الإسلامى بالمدينة بعد هذا الحدث الجلل الذى زلزل أركان المجتمع برحيل الرسول الكريم... وربما أراد بعضهم تولية القيادة لأحد شيوخ المسلمين، أو أنهم أرادوا الموادعة وترك الغزو طلبا للسلامة إلى أن تلتئم جراح المسلمين ويكتمل الاستعداد ولكن هيهات... فقد أبى عليهم الصديق ذلك وأنفذ الجيش كما أراد الرسول الكريم.

يقول الشاعر :

وأوشك جيش الشام يطوى لواءه
ويصدر[1] عما كان لله ناويا
وقال رجال للخليفة لُذْ به
إلى السلم وارفأ بالرجال الحواشيا[2]
فقال وأيم الله لو أن أذنها
تخطفن لحمى أو حسون دمائيا[3]
لما كنت عن رأى النبى بعادل
ولو أننى وحدى خرجت مغازيا

---

(١) يصدر: يرجع

(٢) ارفأ بالرجال الحواشيا: ابتعد بهم عن الحرب.

(٣) حسون دمائيا: كناية عن القتال.

أكفَّ ابنَ عبدِ اللَّـهِ تعقدُ رايَـةً
وكفَّ أبى بكرٍ تحلُّ الأواخِيَـا[1]
فقالوا وطبعُ الجاهليـةِ لَـمْ يـزل
يرَى الجاهَ إلاَّ بالحسابَةِ واهيـا
ذروا عُمَرا يفضِـى إليـهِ بأمرنـا
فإنَّا أبينَا أنْ نُطِيعَ الموالِيَـا

لقد كان أسامة بن زيد بن حارثة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن حبه وربما أراد البعض أن يقوم بأمر القيادة للجيش أحد الشيوخ من ذوى الحسب والنسب غير أسامة الذى كان أبوه مولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ما ... فى مجتمع يعطى الحسب والنسب جل الاهتمام ولكن أنى للصديق أن يحل ماعقده كف الرسول الكريم.. وياله من تكريم وتعظيم وترسيخ للقيم والمفاهيم مافعله الصديق الخليفة الشيخ الوقور مع قائد أول بعث يخرج بعد رحيل الرسول الكريم بقائد فى شرخ الشباب يودعه الخليفة ماشيا مصرا على ذلك رافضا نزول قائد جيشه الشاب من على صهوة جواده، فأى عز ناله القائد الشاب ابن مولى من الموالى...!! ولكنه الإسلام الذى سوى بين الناس فى شتى شئونهم إلا الدين والتقوى وكل ذلك من عند الله علام الغيوب ومن هو تعالى «يعْلَمُ السِّرَّ وأخْفَى...»[2] قال الله تعالى : «يا أيُّهَا النَّاسُ إنَا خلقنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وأنثَى وجعَلنَاكُم شُعُوبًا وقبائلَ لتعارفُوا إنَّ أكرمَكُم عِنْدَ اللَّه أتْقاكُم...»[3]

---

(١) الأواخى: العهود.

(٢) سورة طه الآية ٧.

(٣) سورة الحجرات الآية ١٣.

وقول الله تعالى :«لاتزكّوا أنفُسَكُم هُوَ أعلَمُ بِمن أتّقى...»(١)

ولهذا كان موقف الخليفة مما قيل عن موقف الجيش وقائده أسامة بن زيد رضى الله عنهم أجمعين وكان ذلك إجلالا لمكانة القائد التى كاد أن يزرى بذلك الشمس فى مكانتها يقول الشاعر :

فشقّ رواءَ عَن أسَامةَ راكِبَا يشيّعُه فِيه الخليفةُ ماشيا
وإن ابن زيدٍ بعدَها غيرَ مدَّع إذا قَال إنّ الشمسَ دُونَ مكَانِيا
أتمشِى أبا بكر، وإنك إن تُشِر لطاولتِ الأعناقُ فيك المذاكِيا
رضيتَ بِها فى اللّه لا فِى أسَامَةَ
لتخضِع بالإحسانِ من كَانَ عاصِيَا

وهكذا وبكل حكمة وروية واقتدار ولين جانب أنهى الصديق موقف جيش أسامة دون أن يحدث صدعا فى صفوف المجتمع الإسلامى وكان علاج مثل هذه المشكلات من قبل الخليفة الصديق رضى الله عنه يتم من خلال الإحسان إلى من أساء، وعدم الخوض فى أمور لايجمل الحديث عنها والتجاوز عن الهفوات واللين فى بعض الشدائد.

يقول الشاعر مصورا ذلك :

رَضيتَ بِها فى اللّهِ لا فِى أسَامَةٍ
لتخضعَ بالإحسانِ منّ كَان عَاصِيَا
وصُمتُك فِى بعضِ الأمورِ فصاحَةٌ
وحسبُك إغضَاء عن المرّ جازيَا
ولينُكَ فِى أعيَ الشدائدِ آيةً
رأى بعدَك السّوأى فِيها معَانِيَا

---

(١) سورة النجم الآية ٣٢.

وهكذا تغلب العقل واللين والإحسان على الشدائد ورجع إلى الحق كل من كان فى نفسه شئ ما إزاء خروج جيش أسامة بن زيد بل وبسبب قيادته لذلك الجيش الذى جمع بين دفتيه جموع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

وبعد أن أنهى الصديق رضى الله عنه شدة خروج الجيش بما فيها من أمر القيادة وخرج الجيش مرفرفة راياته مزمجرة أجنحته قد صمم أبطاله على رفع رايات الإسلام إلى شتى البقاع ولكن بقى شئ رأى الخليفة الصديق رضى الله عنه أن يسديه إلى جنوده كى يكتمل سعيهم ويكونوا عند مرضاة ربهم لذلك فإنه يتوجه بالنصائح العظيمة إلى جنوده بالرأفة والرحمة بغير من يقاتلونهم، كما أوصاهم بالتخفف من الأعباء وعدم إفساد كل مايصلح من حال الإنسان مثل الماء الجارى ونهى عن إهلاك أو إحراق الزروع والثمار ونهى الخليفة أول الراشدين جنده عن هتك الحمى ونهى عن استباحة الأعراض وترك العباد فى كنائسهم وعدم التعرض لهم ونهى عن قتل الصبية وإرهاق الأسرى وكلها وصايا غالية أين منها الطغاة والبغاة ممن ظهروا على وجه البسيطة سفاكين للدماء نهابين للأموال هتاكين للأعراض محرقين للزروع والثمار ممن حفل التاريخ القديم والحديث بفظائعهم وعارهم فيما ألحقوه بأقوام احتلوا أرضهم وقتلوا من وقف فى طريق غزواتهم ونزواتهم وشهواتهم وذلك بالرغم من ادعائهم بأنهم حماة المدنية وحقوق الإنسان ونقول لأمثال هؤلاء الطغاة لاتدعوا كذبا أنكم أول من نادى بحقوق الإنسان فأفعالكم تناقض ماتدعون فكم قتل الفرنسيون من المصريين وكم حرقوا وكم انتهكوا الحرمات وهل ننسى خيولهم وهم ينتهكون حرمة الجامع الأزهر الشريف وكم نهبوا من الأموال، وهل وقف الأمر عند الفرنسيين فالإنجليز بعدهم أكملوا ما بدأه من كان قبلهم فى العبث فى الأرض فسادا

ونهبا وقتلا وانتهاكا...

فلك الله ياخليفة رسول الله ولك النصر ولجندك الغلبة والعزة وصدق من قال :«إنكم تقاتلون أعداءكم بهذا الدين ولم يكتب الله تعالى لكم النصر على عدوكم إلا بإيمانكم وكفر عدوكم...»

يقول الشاعر داحضا حجة أدعياء المدنية وحقوق الإنسان قولا لافعلا:-

وقفتَ أمَامَ الجيْشِ ترفُدُ أُمَّــه
وتَضرِم مِن تِلكَ العوَاطِفِ خَابِيَا
يَكَادُ يَشَقُّ النَّارَ إِن صِحت آمِــرا
ويرتدُّ خوْفَ اللَّيلِ إن عُــدتَ نَاهِيا
تقولُ لهم لاتحملوا غيرَ زَادِكُــم
ولاتفسِدوا عذبا مِن المَــاءِ جارِيَا
ولاتُهلِكُوا زَرْعَاً ولا تهتِكُوا حِمَــى
ولاتسبِحُــوا نِســوَةً أو ذَرارِيَــا
ولاتحرقوا باللاذِينَ كنائسَــا[1]
ولاتهدمُــوا باللاجئِــين مَغانِيَــا[2]
ولاترهقُوا الأسْرَى فـرُبَّ مُحَــارِب
إلى الحرْبِ يسعَى مُكْرهَــا لامُعَادِيَــا

كانت هذه وصايا الصديق لجنده المحاربين الذين يرفعون راية العدل ويحاربون الكفر والظلم معهم دستور سماوى يتمثل فى القرآن الكريـــم

---

(١) اللاذين: المحتمين.

(٢) المغانى: الأرض العامرة بأهلها وخيرها.

وسنة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لامطمع لهم من ذلك إلا إنسانية الإنسان حين يعلون من قدرهم ويزكون أنفسهم حين يجعلونهم لايعبدون إلا الله تعالى ولايذلون لسواه وحين يجعلونهم يحلون ما أحل الله ويحرمون ما حرم الله تعالى فى كتابه الكريم : يقول الله تعالى :

«إِنَّ اللَّهَ يأمُرُ بالعَدلِ والإحْسانِ وإيتَاءِ ذى القُربَى وينهَى عَنِ الفحشَاءِ والمنكَرِ والبغْيِ»[1] إضافة إلى تخليصهم من ظلم حكامهم...

ونظرة منا على التاريخ قديمة وحديثه لنقارن بين وصايا الصديق لجيشه وسيرة الجيش مع البلاد التي فتحوها وبين ما فعله الغزاة فى كل عصر وأوان بمن غزوهم واحتلوا ديارهم وأرهقوا الأهلين فيها لنرى الفرق بين الظلم والعدل والحق والباطل، وإضافة إلى ذلك فقد كان هدف الجيش الإسلامى نشر الإسلام بقيمه ومبادئه السامية قولا وفعلا أما سواهم من الغزاة والمحتلين فلا.. فلقد فعلوا الأفاعيل بكل من احتلوهم وغزوا أراضيهم من أجل استغلالهم ونهب خيراتهم واستعبادهم.

ويالها من فطنة وحنكة ألم بها الصديق حين علم أن الجنود ليسوا سواسية فى ميدان القتال وليس كل الجنود لديهم أهداف عليا وقيم مثلى تدفعهم فى ميدان القتال، بل إنه ربما قذف الطغاة فى ميدان القتال بأناس بلاهدف ولاغاية وفى قتال لاناقة ولاجمل لهم فيه بل إن وجودهم فى ميدان القتال كان وفقا لأغراض من ساقوهم إلى ميدان القتال سوق الأنعام بخلاف المسلمين أصحاب الدعوة إلى الله تعالى فهم أصحاب الرسالة الخالدة والمبادئ السامية.

يقول الشاعر مترجما وصايا الصديق لجيشه الميمون:

ولاترُهِقُوا الأسْرَى...!! وَيالَه مَن عَقْل راجِح!! وكأن سائلا سأل:

---

(١) سورة النحل الآية ٩٠.

ولـــــاذا؟ نكـــان الجـــواب :

فَرُبَّ مُحَارِب إلى الحَرب يسْعَى مُكْرهَاً لامُعَادِيَا
رَمَى وهْوَ لايَدْرى قرارةَ سَهْمِـــه أنالَ صَدِيقًا أمْ تجاوزَ قَالبَـا
وَثنَّى بِسُلولٍ عَلى غَيرِ رَأيـــه وطَاوعَ فِيه آمِـرًا متوارِيَـــا
يَسُوقُ إلى الهيجاءِ قَوْما إذا رَنَا إليهَا رَأى لِلعَينِ مِنْهَم مَهَارِيَـا
وماذَا عليهِ أن تَطيرَ نُفُوسُهـــم إذَا هُو أمسَى نَاعِم البالِ هَانِيَا

وهذا هو الفرق بين جيوش الإسلام وبين سواهم من جيوش الاحتلال والغزو فى شتى الأزمان...

أما أثر تلك الوصايا والنصائح على جند جيش أسامة بن زيد بل وكل جند للإسلام خرجوا مجاهدين فى سبيل الله ونشر الدين الحنيف فكان كما صور الشاعر، فقد انطلقوا يحرزون النصر للإسلام لايلوون على شئ من متاع الدنيا وزخرفها، وإن جمحت بهم نفوسهم نحو شئ من متاع الدنيا كان مقالك ماثلا أمامهم فلحقهم الحياء وتغاضوا عما تهواه نفوسهم، فإذا فترت همتهم رن صوت الخليفة فى آذانهم وعمر قلوبهم فعادوا إلى سابق سيرتهم فى الهمة والنشاط فى ميدان القتال وأحرزوا النصر على أعدائهم... يقول الشاعر :

فَسَارُوا كذَاتِ الرَّعدِ إنْ طفِرَت بِهِـــم
من الشَّام نهرا خيلهم سَال دَامِيَـا
إذا ما السَّبايا استَدرجتْهُم تذكَّـــروا[1]
فَعالَك فاستحيُوا وَمالُوا تَفَاضِيَـا

---

(١) السبايا: جمع سبية وهى غنائم الحرب من النساء.

وإن خمدوا تحت العجاج تسمعوا[١]
كصوتِ أبى بكر فهاجوا العواليا

أما رأى الصديق رضى الله عنه فى تجمع المسلمين فى الحرب فكان تداويا وعلاجا ومنافع يؤديها جيش دستوره القرآن الكريم وسنة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وآمره الخليفة الصديق رضى الله عنه بما وصاه من وصايا عظيمة ونصائح غالية قل أن تجد على توالى العصور والأزمان من أسدى إلى جنده مثل تلك الوصايا والتوجيهات لذا كانت الجيوش الإسلامية ذات عائدة على كل الممالك والبلاد التى فتحوها...

يقول الشاعر :

رأى جمعهم فى الحرب داء وإنما
رأى وحده الصديق فيها تداويا
وقالوا ترى الأخطار تحدق بعدنا
بمن ظل فى جوف المدينة ثاويا[٢]
فما كنت فى رأى النبى معارضا
ولاكنت بالأخطار فيه مباليا

لقد حاول كثير من الصحابة إثناء عزم الصديق رضى الله عنه عن إنفاذ جيش أسامة بن زيد رضى الله مخافة أن يحدث خروجه إلى ميدان القتال فى الشام فراغا ينتهزه أعداء الإسلام فيثبوا إلى جوف المدينة حيث مثوى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وأزواجه رضى الله عنهن

---

(١) ثاديا: مقيما.

(٢) العجاج: غبار المعركة - العوالى: السيوف.

أمهات المؤمنين ومايعنى هيكل المجتمع الإسلامى وخيار الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

ولكن الصديق رضى الله عنه لم يبال لتلك الظنون فى لحاق الضرر بهيكل المجتمع الإسلامى نتيجة خروج الجيش الإسلامى إلى الشام وتحقق ما ارتآه الصديق رضى الله عنه ولم يحدث إلا ماتوقعه رضى الله عنه من خير ونصر للأمة الإسلامية والدين الإسلامى يقول الشاعر:

ثَبَاتُ إِذَا مَا الحَادِثَاتُ تجرَّدتْ
سَبوغًا عَلَى جَنْبَيهِ رُدَّتْ ثَوابِيَا
وَرأْىٌ إِذَا لاحت ثواقِبُ شُهَّبِه
أضاءَت لَهُ ما كَانَ فى الغَيبِ دَاجِيَا

وبذا كان الصديق رضى الله تعالى عنه ألمعيا فى رأيه تجاه أمور كثيرة حيث تحقق الخير الكثير للأمة الإسلامية من جراء ونتاج آرائه البناءة خدمة للإسلام والمسلمين.. ابتغاء مرضاة الله تعالى.

الصديق والمرتدين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «بُنِيَ الإِسلَامُ عَلَى خَمسٍ : شَهَادَةِ أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه، وأن مُحَمَّداً رسُولُ الله، وإِقَامِ الصَّلاة، وإِيتَاءِ الزَّكاة وصَوْمِ رَمَضَانَ وحَجِّ البَيتِ لمَنِ استَطَاعَ إِليه سَبِيلاً...»

وقد تمكن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قبل وفاته من بسط سلطان الدين الإسلامى بأركانه الخمسة على غالب شبه الجزيرة العربية وتحقق قول الله تعالى لرسول الله الكريم.. «اليَومَ أكْمَلتُ لَكُم دِينَكُم وأتمَمتُ علَيكُم نِعمَتِى ورَضِيتُ لَكُمُ الإِسلَامَ دِينَا...»[1] وقول الله تعالى :«إِذا جَاءَ نَصرُ اللَّهِ والفَتحُ ورأيتَ النَّاسَ يَدخُلُونَ فِى دِينِ اللَّهِ أفوَاجاً فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّك واستَغفِرهُ إِنَّه كَانَ تَوَّاباً»[2] وقد كان العرب فى حياة الرسول الكريم يؤدون جميع أركان الإسلام طواعية واختياراً منهم فى كثير من البقاع التى دخلها الإسلام،وكان من المسلمين كثير من المؤلفة قلوبهم الذين كان الرسول الكريم يتألف قلوبهم طمعا منه صلى الله عليه وسلم فى أن يخلصوا لإسلامهم ويتعمق الإسلام قلوبهم قال الله تعالى :«قَالَتِ الأَعرابُ آمنَا قل لَم تُؤمِنُوا ولكِن قُولُوا أسْلمنَا ولَمَّا يدخُل الإيمانُ فِى قُلُوبكُم وإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ ورسُولَه لايَلِتكُم مِن أعْمَالِكُم شيئَا...»[3] وكان هؤلاء المؤلفة قلوبهم ومن أسلم بلسانه ولم يؤمن قلبه وفى كثير منهم سرعان ما انقلبوا بعد وفاة الرسول الكريم يتخففون من بعض ما كلفهم به الإسلام من أعمال

---

(١) سورة المائدة الآية ٣.

(٢) سورة النصر الآيات ١-٣.

(٣) سورة الحجرات الآية ١٤.

وأركان لابد لبقائه منها فى نفوسهم، فهؤلاء يرون الزكاة إتاوة كانت تؤدى للرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم فما بال أبى بكر!!؟

وأمر المجتمع الإسلامى الناشئ كان بيد الرسول الكريم فما بال أبى بكر أيضا أيورثها بكرا وقد عاش بعده فتلك لعمر الله قاصمة الدهر!! وبعد وفاة الرسول الكريم لم يعد لأحد- فى رأيهم- أن يطالبهم بأدائها وهؤلاء يستثقلون الصلاة فأتوا إلى الخليفة الصديق يسألونه إعفاءهم منها وكأن الصديق رضى الله عنه هو من فرضها على المسلمين حتى يكون بيديه رفع التكليف بها وهكذا وجد الصديق أن كثيرا من الأعراب والمؤلفة قلوبهم قد رموه عن قوس واحدة وقلبوا ظهر المجن للإسلام وحكومته الجديدة فماذا هو فاعل إذن؟ لقد شاور الصديق رضى الله شيوخ المهاجرين والأنصار فى هذا الشأن، وكان رأى كثير منهم مسالمة ومهادنة أمثال هؤلاء الأعراب حتى تقوى شوكة الإسلام ويكون بالإمكان محاربتهم والقضاء عليهم، ورأوا أن السلام توحيد للمجتمع أما الحرب ففيها شق للصفوف وتمزيق للمجتمع فى رأيهم..

أما الصديق فكان رأيه أن هؤلاء المرتدين يهدمون الدين الإسلامى بنكوصهم عن أداء تكاليفه وعلى هذا فلا مهادنة لأمثال هؤلاء فى رأيه بل ويجب الضرب على أيديهم بكل قوة حتى يثوبوا إلى رشدهم ويكونوا عبرة لغيرهم بل إنه قال قولته المشهورة «واللَّهِ لو مَنعُونى عِقَال بَعِير- وفى رواية أخرى- عَنَاقَاً- كانوا يُؤدُونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لَقاتلتُهم عَلَيه...»

وبهذا الحزم والمنطق والحق سيرالخليفة الصديق الجيوش التى ردت المرتدين على أعقابهم وبسطت سلطان الدين على كل البقاع ورأى المهادنون الحق فيما ارتآه الصديق رضى الله عنه يقول الشاعر :

وظنوا زكاة المال صار إتاوة
فلم يرفدوا في طاعة الله جابيا
أحال أبو بكر على الصبر عشرة
وأنذرهم أخرى فزادوا تماديا
فأوسع للشورى صدور رجاله
وما أروع الإسلام فيها مجاليا
سواسية لايعرفون خليفة
ولايتقى المولى على الحق واليا
فبينا يرون السلم أشفى لجرحهم
ويجتنبون الحرب منها تفاديا
وخوفا على الجيش الذى لم يطر له
هزار ولم تسمع له الروم شاديا
عرت عمرا من سطوة الحق رعدة
فقام بإنفاذ الجيوش مناويا
وقال رأى الصديق فى الأمر رؤية
وكنت أرى الصديق فى الأمر غاليا
فمذ شرح الإيمان للحرب صدره
تيقنت أن الحق ماكان رائيا

وكان نتيجة ذلك التأييد لرأى الصديق والاقتناع برأيه فى مجابهة المرتدين وإقناع من يرغب فى التمسك بالدين وإن لم يكن فالحرب ردا لمهابة الدين فى النفوس وبذا سير الخليفة الصديق أبو بكر يسانده شيوخ الصحابة أجمعين- الجيوش لمحاربة المرتدين، وكان من ألمع وأقوى القواد فى محاربة

---

(١) الإتادة: الجزية وهى رمز للذل.

(٢) يرفدوا: يعطوا- جابى: عامل الزكاة.

المرتدين هو القائد المنتصر سيف الله المسلول خالد بن الوليد رضى الله عنه والذى انطلق كدوى الرعد يقهر الكافرين المرتدين ويذل جهدا لايبارى فى سبيل إخضاع العصاة وإعادتهم إلى حوزة الدين الإسلامى ولم يبق فى شتى البقاع إلا مسلمين عابدين لله تعالى.

يقول الشاعر :

وَبَثُّوا السَّرايَا واحتوى النقعُ خَالِـدَا
يخوضُ بصيداءِ البِطَاحِ الأعَادِيَا(١)

مَضَى كَدوىَ الرَّعدِ بينَ أزيزِهِـمْ
بأصْلَت لاتلْقَى الطُّلَى مِنْهُ وَاقِيَا(٢)

فَماعَلِمُـوا أىَّ الحُسامَـينِ خَالِـدٌ
وأيُّهُمَـا كَـانَ الحُسامَ اليَمانِيَـا

صَدَى عزمَات طارَ من قَبـل خالـدٌ
يقولُ بأفـواهِ الريـاحِ حذارِيَـا

فكادَتْ رِئَاتُ الخَيلِ ترقَى حُلوقَهـا
وتبلغُ أرواحَ الرِّجال التَّرَاقِيَـا(٣)

فيا هَادِمَ العزَّى ضربتَ فلَـم تَـذرْ
بِهَا سَادِناً إلاَّ إلى اللهِ جَاثِيَـا(٤)

وهنا يرسم الشاعر بكلماته القوية بطولة القائد العظيم خالد بن الوليد وأعماله فى ميادين المعارك التى خاضها بجيشه المنتصر فى كل موقعة فلقد أجهد القائد جيشه رجالا وفرسانا وبذلوا أقصى الجهد فى ذلك

---

(١) صيداء البطاح: الأصيد المزهو بنفسه وهى صيداء والبطاح الأماكن المتسعة ويعنى بهم ابطاله يخوض بهم المعارك.

(٢) الأصلت: السيف المجرد من غمده- الطلى : الأعناق.

(٣) التراقى: عظام الصدر.

(٤) سادن كاهن جاثى: بارك على ركبته.

حتى أنهى وجود الأصنام وصار الناس بعدها إلى عبادة الله الواحد الأحد يقول الشاعر :

طلعَت عَلى البَلقاءِ والـرُّومَ تحتِـي
فلَم ترَ من صِفيك غيرك حَامِيـا
كأن المواضِى خَالفتْهم عَلَى الوَغـى
وماخُلِقتْ إلاَّ علَيهِـم مَواضِيَـا
إذَا ثبتـتْ منـكَ العيـونُ مَهابَـةً
تحرَّك منهَا بالرمَاحِ المآقِيَـا(١)
ودَانـت رُؤوسٌ مـن تَمِيـم ومَالِـك
غدا بينى يَربُوعَ يَرمِى المرَامِيَـا
فكرَّت عَليَه الخيلُ وانحـدَرت بِـه
إلى خَالِد فى قَبضةِ الأسْر عَانِيَـا
فجرَّعه الجُلَّى (ضِـرارُ بـن أزور)
وأنفذ فِيه الله ما كَـانَ قَاضِيَـا
ترى سِجنه بالجدبِ ظلمـا وتتقـى
تخاذله تحـتَ الإتـاوَةِ شَاكِيَـا

وهكذا كان خالد بن الوليد وكل قواد الجيوش المسلمة فى مفتتح خلافة الصديق رضى الله عنه كانت لهم اليد الطولى فى محو فتن الردة التى أقبلت بعد وفاة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم سحائبا كقطع الليل المظلم، إلا أن جيوش خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أعادت الأمور إلى نصابها ودانت رؤوس الشرك من شتى القبائل منهم من قتل بظلمه ومنهم من أسر ومنهم من عاد إلى حمى الإسلام، ولم يكن ذلك من الخليفة بغيا ولا عدوانا ولكنه كان درءا للشر وردا للعدوان وإحقاقا للحق وإعلاء لدين الله الواحد الديان.

---

(١) البلقاء: أرض الشام.
(٢) المأقى: قاع العين.

الصديق وتجيش الجيوش لإعلاء كلمة الله تعالى

كان الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضى الله عنه يتميز باللين والعطف والحنو والإشفاق على المسلمين جميعا، وكانت تلك طبيعته التى فطره الله عليها انطلاقا من سياسته التى استنها من أول يوم تولى فيه أمر الأمة الإسلامية فى قوله : أيُّهَا النَّاس: إنِّى وُلِّيتُ عَلَيكم ولَسْتُ بخيرِكم فإن رأيتُمونِى عَلَى حَقّ فأعِينونِى، وإن رأيتُمونِى عَلى بَاطِل فقوِّمُونى، الضَّعيفُ فِيكُم قَوِىٌّ عِندِى حتَّى آخذَ الحقَّ لَه، والقَوِىُّ فيكُم ضَعِيفٌ عِندِى حتى آخذ الحق منه...»

وقد خبر بحنكته وطويل تجاربه فى الحياة طبيعة العربى، فقد رآه الخليفة الصديق بطبيعته يأبى الذل والهوان ويأنف الضيم من أى كائن من كان إلا أنه إن أسلس قياده وعومل معاملة حسنة كان منه الخير الكثير وأعطى أفضل ما لديه من طاعة وحسن أداء...

فإذا أحس باستذلال أحد له أو إلحاق للضيم به فإنه ينقلب ضاريا يطيح بمن ألحق به الأذى وسامه سوء الخسف...

وهكذا كان الخليفة يعرف طباع العرب فأحسن معاملتهم فاستجابوا له وانضووا جنودا مخلصين فى شتى الجيوش وحموا مجتمعهم الوليد من أن يلحقه البوار، أو أن يغشاه الأشرار الذى أحاطوا به من كل حدب وصوب، ولكنه خليفة مسلم يعرفه ربه حقا ويعرف ماله وماعليه ومالأمته عليه من حقوق وما عليها للإمام من واجبات فأحسن السيرة مع رعيته فأحسنوا وأجزلوا له الجهد والعطاء فى شتى ميادين الحياة. يقول الشاعر:

تَرى عَرَبًا مَا أَنْتَ مُسْلِسٌ قِيادَهُم
لَوَ كُنتَ فِى الأَمْرِ جَافِيَا[1]
إذا اسْتشعرُوا بِالحكْمِ وَهْوَ مذلَّةٌ
رأوهُ عَلَى حرَّةِ الشَّعبِ قَاضِيَا
وإن قلبُوا ظَهْرَ المِجَنِّ إبَاءَةً
فإنَّك مُستعدٍ عَلَيكَ الضَّوارِيَا[2]

كان هذا شأن العرب... بالأمس...!!

فماذا كان رأى الخليفة وماذا فعل ليوظف تلك الطاقات المعطلة فيما يفيد ويعود على المجتمع الإسلامى بالخير الكثير. يقول الشاعر :

شَغلتهُم بالحَرب فاستَحلَب الوَغَى
بِهِم أمَّا دَرَّت فَرُوتَ هَوامِيَا
وقلت لهم هذى مناهِل قيصر
وكسرى فهلْ أخْضلَن بالرَّمْل وَادِيَا
لأنتمَ هُداةُ النَّاسِ والأمَّةِ الَّتى
إذا افترقَت فِى الأَرضِ عادتْ كَما هِيَا
فياعرب اشتَدُّوا فإنَّى لرافِع
عليكم إلى يَومِ الحِسَابِ لِوَائِيَا

ولقد صدق الخليفة الأول رضى الله عنه حين قال فى أول خطبة له بعد تولية أمر الأمة الإسلامية الناشئة «لايدعُ قومٌ الجِهَاد فى سَبيلِ اللَّه إلا ضَربهُمُ اللَّه بالذُّل.. وهذا هو جهاد الأعداء..

ولاتَشِيعُ الفَاحِشَةُ فى قَوْم إلا عَمَّهم اللَّه بالبَلاء.. وهذا هو جهاد النفس وقد صدق الصديق رضى الله عنه فى كل ماقال...

---

(١) جافيا: فظا غليظ القلب- ظهر المجن- كناية عن تغير الحال إلى النقيض- الضوارى: الوحوش.

خالد بن الوليد رضى الله عنه
ومعركة اليرموك

وانطلاقا مما سبق أن عرفه الخليفة الأول عن العرب فقد جيش الجيوش وبث البعوث فيما حوله من أطراف الأرض رفعا لراية الإسلام وتأمينا لحدود الدولة الإسلامية الناشئة من الأعداء المحيطين بها وكان الروم فى الشمال يتربصون بالمسلمين وسبق أن ناجزهم المسلمون فى مؤتة وتبوك فى العامين الثامن والتاسع الهجريين حال حياة الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم، أما معركة اليرموك فقد كانت عام ١٣هـ-٦٣٤م فقد علم المسلمون أن الأمبراطور البيزنطى «هرقل» الأول قد حشد جيشا كبيرا وجندا كثيفا قرابة المائة ألف مقاتل وقدهم بتوجيههم إلى الجنوب للقضاء على دولة الإسلام، فأعد الخليفة الصديق للأمر عدته وسير الجيوش لملاقاة هرقل وجعل القيادة لأبى عبيدة بن الجراح وقال لقواد الجيوش المسلمة «اجتمعوا عسكرا واحدا والقوا زحف المشركين بزحفكم فأنتم جند الله والله ناصر من نصره وخاذل من كفره..»

وتزاحف الجيشان كل منهما تجاه الآخر، وظل الأمر كذلك دون إحراز نصر على العدو لزمن طال وكان الأمر فى حاجة إلى من يحسم أمر تلك المعركة ويلحق الهزيمة بالأعداء وحينئذ أرسل الخليفة الصديق إلى خالد بن الوليد رضى الله عنه وكان يقود جيشه لفتح بلاد فارس يطلب إليه الانضمام إلى جيش المسلمين فى الشام، وكان يفصل بين جيش خالد بن الوليد وجيوش المسلمين فى الشام فى مواجهة هرقل فى الغرب أهوال ومشاق جمة تمثلت فى بادية السماوة القاحلة المجدبة حيث تندر فيها المياه ويشتد القيظ وتتوعر المسالك ...!! فكيف لخالد بن الوليد رضى الله عنه

أن ينجو بجيشه من كل تلك المهالك ويحافظ عليه وعلى الروح القتالية لدى الجند بعد ذلك حتى يستطيع تحقيق النصر بهم، فلايكفى أن يسلم الجند فقط ثم يصلوا إلى ميدان المعركة منهكين كالين قد أعيتهم مشاق الطريق وشدائده بل لابد أن يصلوا موفورين نشطين قد شمروا عن سواعد الجد حتى يستطيعوا تحقيق النصر وهذا هو مافعله سيف الله المسلول ولكى يتغلب على مشاق الصحراء وقلة الماء فيها فقد أمر جنده بإظماء الإبل ومنعها من ورود الماء أياما عديدة، ثم أوردها الماء بعد ذلك فعبته عبا ثم أمر الجند بربط مشافر الإبل حتى لا تجتر فيتسرب الماء منها ثم إنه كان ينحر لجنوده منها حسب حاجتهم ويستفرغون الماء منها ويأكلون لحومها ويشربون الماء منها، وكانت هذه هى وسيلته العبقرية التى هداه الله تعالى إليها ليعبر بجنده إلى بر الأمان من تلك المفازة المهلكة. يقول الشاعر:

وَهلْ عَلِمَ اليرمُوك خَطَّة خَالِد
وما كَان فِى أقصَى المَالِك ثَاوِيَا
وَدَيْومَةٍ لايقبَّبُ الضَّبُّ قَيظَهَا(١)
ولم تسمع في الدَّهرِ للجنِّ حَادِيَا
رَمَاهَا بِصحَراءِ السَّماوَةِ خمسَة
وأترعَ مِن جَوفِ النِيَاقِ سَواقِيَا
إذا ظمئُوا شقُّوا بطُونَ جِمالِهِم
وبلُّوا نفوسًا فوقَهُنَّ صَواديَا(٢)

---

(١) الديومة: الفلاة الواسعة لا ماء بها- لايسمح القيظ وشدة الحر للعشب ببناء قبة فيها.

(٢) صوادى: عطاش.

لقد شَرِبتْ تِلـكَ الجمَـالُ لِغيرهَـا
ولو عَلِمتْ لم تَشْربِ المَاءَ صَافِيَـا

وهكذا هيأ الله تعالى لدينه خليفة راشدا، كما جندله الجنود الأوفياء والقـادة العظمـاء الذين قـادوا جنودهم إلى النصـر على الأعـداء وتغلبـوا بذكائهم الفطرى وقوة عقيدتهم وإيمانهم على أقوى الشدائد التى وقفت فى طريقهم حتى كتب الله تعالى لهم النصر على أعدائهم ورفرفت راية الإسلام عالية خفاقة، ودكت جيوشهم حصون الأقوياء وارتفع الآذان بالتكبير فى معظم البلاد .

وصف جيش كسرى وقيصر

جاء الإسلام فاحترم إنسانية الإنسان وجعله عبدا لله تعالى وحده لاشريك له وحرم عبادة ماسوى الله تعالي، ووجه نظر المسلمين إلى أن الدنيا مزرعة للآخرة، وأن الجهاد ذروة سنام الإسلام ووعد المجاهدين إحدى الحسنيين، إما النصر وإما الشهادة، وكان الخليفة الصديق رضى الله عنه والقادة يبثون الحماس والحمية في نفوس المقاتلين، ويذكرونهم بوعد الله تعالى لهم بالجنة والنعيم المقيم فى الآخرة، وأن الدنيا لاتساوى عند الله تعالى جناح بعوضة، وأن الجنة تحت ظلال السيوف، ووعد الله تعالى المسلمين بالنصر على الأعداء قال الله تعالى «ولينصُرنَّ اللهُ مَنْ ينصُره...»(١).

وقال تعالى «ومن يقاتِل فى سَبيلِ الله فيقتل أو يغلب فسوف نُؤتِيه أجراً عظِيما»(٢) لذا فإنهم كانوا يقبلون على الموت فى سبيل الله دون خوف أو جبن يقينا بما وعد الله تعالى المقاتلين، بل إن مجئ الإسلام كان السبب فى ظهور المقاتل العقائدى أى صاحب العقيدة القوية التى يدافع عنها ويفتديها بروحه ومالِه، وذلك بخلاف جند كسرى وقيصر حيث لم تكن لهم عقيدة يدافعون عنها بل كانوا يساقون إلي الحرب سوق الأنعام، كما كانوا يشدونهم بالسلاسل فى ميدان الحرب ظنا منهم أن ذلك مدعاة لثباتهم فى الميدان وعدم فرارهم، ولكن خاب ظنهم... فسرعان مابدأت المعركة بينهم وبين جند المسلمين وكانت الشجاعة والإقدام فى جانب جند الإسلام أما جند كسرى وقيصر فقد تقهقروا أمام زحف المسلمين ولم تستطع

---

(١) سورة الحج الآية ٤٠.

(٢) سورة النساء الآية ٧٤.

السلاسل أن توقف فرارهم من الميدان بل إن تلك السلاسل شلت حركتهم أمام جند الإسلام فى ميدان المعركة وبذا صاروا صيداً ثميناًوهدفا سهلاً نالته أسلحة جند المسلمين بسهولة فكان النصر للمسلمين وكانت الهزيمة لجند كسرى وقيصر:

يقول الشاعر :

وَهَلّ أغنَتِ الأغْلالُ عَن جَيشِ هُرمُز[1]
وهل قدحت منه السَّلاسِلُ وَارِيَا
وَهَل قرنُوا إلاّ لأن يَسحَبُوا بِهَا[2]
كما يَسحَبُ الرَّاعِى الفِلاصَ النَواجِيَا
فَبينَا يُقَوِّلُ الفُرسُ والروم عاجز[3]
أسلْت عَلَيهم بالجنودِ الروَابِيَا
وفاجأت بالجيشَينِ كِسرَى وقيصَر
وطيَّرتَ للعرشَينِ في الشَّرقِ نَاعِيَا

وهكذا لم تغن السلاسل عن جيوش الشرك، ولم تؤجج نار الحماس والحمية فى نفوسهم بل إنهم صاروا يسحبون بتلك السلاسل كما تسحب النياق، وفى حال عجز جيوش الشرك، كان جيش الإسلام يغشى ديارهم من كل حدب وصوب، وكان ذلك مفاجأة لهم لم يحسبوا حساباً لها ولحق بهم البوار والخسار ونعى الناعون في الدنيا عروش الفرس والروم .

ومن عجب أن هؤلاء الملوك من أكاسرة وقياصرة لم يكونوا يسمعون عن مثل تلك الجيوش تخرج من الجزيرة العربية، كما لم يكونوا يسمعون عن

---

(١) هرمز: أحد ملوك الفرس .

(٢) القلاص النواجيا: النوق القوية النشيطة .

(٣) الروابى: جمع رابية ماارتفع من الأرض .

ملوك فيما مضى يسيرون تلك الجيوش منها كما أن تلك الجيوش المشركة لم تكن تنفذ غير مايريده منها حاكمها الذى يكون الموت فى غضبه على رعيته والحياة فى رضاه عنها وبذا لم يكن لتلك الجيوش أهداف عليا ولاقيم فضلى بل كان الغرض من كل غزواتهم متاع الدنيا وبسط الجاه والسلطان دون النظر إلى الإنسان؛ بخلاف جند الإسلام فقد كان الهدف من تلك الغزوات التى يقومون بها نشر العدل والمساواة بين الناس ورفع راية الإسلام عالية خفاقة بما تحوى من قيم عليا فيها السعادة للبشر أجمعين، ولذا فإن من أتى وتحمل المسئولية بعد الصديق رضى الله عنه لم يملك إلا أن يفعل فعله فى تسيير الجيوش نشراً للعدل والمساواة بين الناس فى كل البقاع يقول الشاعر :

وماسَمِعَتْ عنْكَ العياهِلُ فاتحاً[1]
ولانظرت مِنكَ المرازِب غازِيا
ولم تتعوَّد أن ترى غيرَ ربهَا
هو الموتُ غضْباناً هو العيشُ راضِيَا
سبقْتَ بِأساس الفتُوح ولم تَذَر
لغيرِك إلاَّ أن يَرَى لَك تَالِيَا

---

(١) العياهل أباطرة الروم- المرازب: الرؤساء من الفرس .

الصديق أبو بكر وسياسته في إدارة شئون الرعية

قال الله تعالى لرسوله الكريم مثنياً عليه.. «فَبِما رَحْمةٍ من اللَّه لنتَ لَهُمْ ولوْ كُنتَ فظاً غَلِيظ القلب لانفضُّوا من حَولك فاعْفُ عَنهُم واستغفِر لَهم وشَاورْهمَ فى الأَمر فإذاَ عَزمْتَ فتوكَّل عَلَى اللَّه إنَّ اللَّهَ يَحبُّ المتوكِّلين..»(١).

وانطلاقاً من دستور الأمة الإسلامية السماوى سار الرسول الكريم فى أمته بالعطف واللين حيث كان كما صور القرآن الكريم فى آيات كثيرة من قوله تعالى مثنياً على الرسول الكريم «وماأرسلناك إلاَّ رحْمَةً للعالَمين»(٢).

وعلى دربه سار أصحابه حكاماً ومحكومين من حيث كانوا مثل ماكان الرسول الكريم خلقهم القرآن الكريم، وهكذا كان الصديق رضى الله عنه أثناء توليه أمر المسلمين لم تبد منه فظاظة ولا جفوة لرعيته بل كان المشفق الحانى عليهم وقد وضع خطته لحكم الأمة الإسلامية فى خطبته المشهورة وساوى فيها بين الناس جميعاً وهكذا تكون مبادئ الإسلام انطلاقاً من قوله تعالى: «إن أكْرَمَكُم عِندَّ اللَّه أتْقَاكُم»(٣).

كما لم يكن منه فى أثناء توليه أمر المسلمين مايوحى بالزهو والغرور والتسلط على الولاية لأمور دنيوية ولم يؤثر عنه أنه تكبر يوماً أو أنه قد صغر خده للناس ومصداقاً لذلك فإنه بالرغم من كونه خليفه للمسلمين لم

---

(١) آل عمران الآية ١٥٩ .

(٢) سورة الأنبياء الآية ١٠٧ .

(٣) سورة الحجرات الآية ١٣.

يترفع عن القيام بأعمال قل أن يقوم بها من كان مثله فى مكانته الدنيوية لكنه الصديق صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار فهل قـــام الخليفة إثر توليه الخلافة باصطناع الخدم والحشم والأتباع والمظاهر الدنيوية ولبس الطيالس والحرير وماإلى ذلك.. كلا والله ....!!

فلم يفعل الخليفة الصديق شيئاً من ذلك ولم يختص نفسه أو أحد من أهله بشئ من متاع الحياة الدنيا، وهاهو بعد أن صار خليفة للمسلمين يسير بين الناس بثيابه من الأسمال البالية بل إنه كان فى بداية ولايته يحمل تجارته من ثياب ذاهباً بها إلى السوق وحين يراجعه شيوخ الصحابة فى هذا الأمر كان رده عليهم قائلاً إنه يسعى من أجل عياله: فإن أضعتهم - يعنى أهل بيته - كنت لمن سواهم أضيع...!!

بل إنه فى أدنى الأمور وأقلها شأنا لايتورع عن القيام بها إرضاء للضعفاء وحسماً للنزاع حين يشتجر لأمور بسيطة :

يقول الشاعر :

وماكُنتَ يَوماً فى الحُكُومةِ جَانِيَا ولاكُنتَ يَوماً بالخلافَةِ زَاهِيَـا
أَفى خَلَدِ الأَسْمَالِ أَنْ خليفَـةٍ بِها رَانحاً فِى نُصرَةِ اللَّهِ غَادِيَا
إذا مَاجوارِى الحَىِّ هَبَّتْ بِشاتِهَا تُساوِمُ حَلاَبَا وتَسأَلُ رَاعِيَـا
تَعدْتَ بأجلالِ الخِلافَةِ ضَارِعَـا تُدِرُّ شُوَيهَاتٍ وتُرْضِى جَوارِيَا

وهكـذا يكـون شـأن المتـواضـعـين ممـن لـم يركنوا إلي الدنيـا وزينتهـا والذيـــن وعـوا قول الله تعالى «قُل مَتاعُ الـدُّنيَا قَلِيـلٌ والآخِرةُ خيرٌ لِمَنِ اتَّقَى...»[1] وقول الله تعالى: «ومَاالحَيـاةُ الدُّنيَا

---

(١) سورة النساء الآية ٧٧ .

إلاَّ مَتاعُ الغُرُورِ»[1]، ومن غير شك فإن المناصب تغرى أصحابها - في معظم الأحوال - بمسالك معينة تجعلهم يتميزون عن سواهم فى ملبس ومظهرهم وتعاملهم مع سواهم من الناس أما الصديق أبو بكر فهيهات أن تزعزع منهجه فى الحياة المغريات الدنيوية ولاغرو فتاريخه في الإسلام وسيرته واقتداؤه بالرسول الكريم كل ذلك وأكثر قد منعه من أن يكون حاكماً دنيوياً يعب من متاع الدنيا وزينتها بصورة تجعله لايكاد يذكر الآخرة، وهاهو يسير فى حياته بعد الخلافة كما كان يعيش قبلها قد باين زينة الحياة الدنيا لقاء ماأعده الله تعالى له من النعيم المقيم فى الآخرة .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٨٥ .

الصديق والتواضع

جاء الإسلام ليتمم مكارم الأخلاق ويصوغها صياغة حميدة، وكان رسول الله صلي الله عليه وسلم أسوة حسنة لأصحابه ومجتمعه فلم يركن إلى الدنيا ولم يغتر بزينتها وزخرفها ولم تتطلع نفسه الشريفة إلى ملذاتها وعاش عيشة الكفاف فى بيته وظل كذلك طوال حياته، حتى بعد أن وسع الله تعالى عليه واتسعت أرجاء المجتمع الإسلامي ورفرفرت راياته في شتى بقاع الجزيرة العربية وكثرت الغنائم والأفياء،و لكنه لم يكن يختص نفسه أو أحداً من أهل بيته بما يميزه عن سائر المؤمنين، وظل كذلك حتى تشكت أمهات المؤمنين وألححن فى طلب المزيد من النفقة حتى غضب رسول الله صلي الله عليه وسلم منهن لكثرة منازعتهن، فأقسم صلى الله عليه وسلم ليهجرهن شهراً، وشاع بين المسلمين أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد طلقهن جميعاً(١).

وكان لذلك أثره فى المجتمع الإسلامى في تلك الأزمان وإذاكان هذا جانب من سيرة الرسول الكريم فى حياته في بيته، فقد اقتدى بسنته أصحابه والمجتمع الإسلامى عامة فى ذلك الوقت...

وقد كان أشدهم في ذلك صحابته فقد ساروا على سنته من زهد وتقشف وبعد عن زخارف الدنيا وزينتها وتمسكوا بالقيم الإسلامية وأطاعوا الله ورسوله وابتعدوا عما يغضب الله ورسوله، وكان منهم التمسك بالأخلاق الحميدة من تواضع وعفة وزهد وإنصاف وبعد عن زخارف الدنيا وزينتها وهاهو ذو الكلاع اليمنى يفد إلى المدينة مقر خلافة المسلمين مرتدياً

---

(١) الصديقه بنت الصديق - العقاد ص٣٦ - دار المعارف .

تاجه وحليه وبين خدمه وحشمه فى الوقت الذى يكون فيه الخليفة مرتدياً أسماله التى لاتفترق عما يلبسه أى فرد من أفراد رعيته مما جعل ذا الكلاع يشهد للإسلام بأنه دين المساواة والحرية والتآخى بل ويتخلى عن زينته ويسلك مسلك الصديق فى سيرته وحياته الدنيوية .

وكما يقال «اللبوس لايصير القسوس» ولذا فإن الصديق بعد أن اطمأن إلي منزلته لدى ربه ومكانته بين أفراد مجتمعه لم يعد يهتم بما يلبس ولابما يتزين به بين الناس، وكان عيشه الكفاف من اللباس ماخشن ومن الطعام مايقيم الأود يقول الشاعر :

لَقدْ دَهمَ الركْبَ اليَمَانِى مُغْبِر فشَاهَدهُ عَنْ مَنظَرِ المُلْكِ نَابِيَا
غداةَ تجلَّى ذُو الكلاَع بِتاجِه[1] وأشرقَ مِن أبرَادِه مُعرَاتِيَا
يَكادُ من الإغراق يَفهَقُ بالحِلَى وأقدَامُه كَادَتْ تَمُجُّ الغَوَالِيَا
إذَا الشَّمسُ حَيتهُ وعَنَّت خَرِيدَة يُدحرِجُها بالصَّولَجَانِ تَلاَهِيَا
وإن نَظرت منَّتْ عَلى النُّورِ عينُه كما لَو يكونُ النُّورُ بالعَينِ رَائِيا
مشَى أَلفُ عَبدٍ مشتَلِينَ أمَامَه إذا هَزُّهمُ للجُودِ هزَّ العَوادِيَا
فلما رأى من نَسْجِ تَيم مَجاسِداً يكادُ يرى فيهَا الخَليفَة عَارِيَا
تَولَّتْه مِن أمرِ الخلافَةِ دَهشَةٌ فألقَى الحِلَى والخزَّ وارتَدَّ حَافِيَا
وقال كذا دِينُ المُسَاواةِ فلتكُنْ خلافَتُه حرِيَّةً وتآخِيَا
ومن ضَمِنَ الإجلالَ في كُلِّ بُردَةٍ رأَى مَاوقَاهُ الحرُّ والبَردُ كَافِيَا

---

(١) ذى الكلاع اليمنى: من أمراء اليمن أسلم وأقبل على أبى بكر الصديق فى المدينة.

«الصديق تاجراً»

هاجر المسلمون من مكة إلى إلى المدينة فراراً بدينهم وتركوا لذلك أموالهم أو اغتصبها منهم أهل مكة نكاية فيهم، وعلى هذا فقد كان المسلمون المهاجرون من مكة إلى المدينة في بداية حياتهم بالمدينة المنورة فقراء- نعم فقد آخى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار رضى الله عنهم أجمعين وقام الأنصار طواعية فأشركوا المهاجرين فى أموالهم وديارهم بل ونسائهم أيضاً، إلا أن المهاجرين لم يرضوا بأن يكونوا عالة على إخوانهم الأنصار فكدوا وسعوا وشمروا عن سواعد الجد لكى يعولوا أنفسهم وأهليهم ومارسوا كل عمل شريف يقيتهم فى الحياة الدنيا .

وكان الصديق رضى الله عنه من المهاجرين الذين عملوا بالتجارة وكان يحمل أثوابه على كتفه ذاهباً وعائداً إلى السوق وظل حاله كذلك حتى بعد أن ولى أمر المسلمين، وحين رآه شيوخ الصحابة على هذه الحال رأوا له أن يترك التجارة ليتفرغ لشئون المسلمين ولكنه يرفض مخافة عيلة أهله وضياعهم فيفرض له المسلمون قرضاً من بيت مال المسلمين يكفى حاجته ويرد مازاد عن قوته وقوت عياله إلى بيت مال المسلمين يقول الشاعر :

وساع إلى الأسواق يزجى بضاعة[1] ويسأل فيها الله والناس شاويا
وماجهلوا أن الخليفة بينهم ولكن حياة الدين كانت تساويا
فقيل له ألهتك عنا تجارة إذا عدت بزازاً فلاتك راعيا[2]

---

(١) يزجى: يسوق .

(٢) بزازاً: تاجر الأقمشة- راعياً: حاكماً.

فَقَالَ أَرْجِعَا رَعْيَكُمْ فِي خِلَافَتِي إِذَا كُنْتُ فِيهَا لَسْتُ أَرْعَى عِيَالِيَا
فَقَالُوا لَهُ نُعْطِيكَ فَرْضَ مُهَاجِرٍ(١) وَنَأْخُذَ مِنْ قُرْبَاكَ مَاكَانَ بَالِيَا
فَقَالَ لَقَدْ أَغْنَيْتُمُونِي بِفَرْضِكُمْ وَحَسْبِي مَاسَدَ الطَّوَى وَكَسَانِيَا
كَفَيْتُمْ أَبَا بَكْرٍ فَرُدُّوا جِبَايَتِي إِلَى بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَمَالِيَا

وهكذا كانت سيرة الخليفة الصديق رضى الله عنه فى رعيته ومن بيت مال المسلمين لم يغلل ولم يختص نفسه أو أحداً من أهله بما يتميز به عن سواه وقد ترك التجارة ليفرغ لشئون المسلمين وجعلوا له من بيت مال المسلمين مايصلح به نفسه وعياله، فلما رأى أنه مشف على الموت لم تطب نفسه بما أخذ من بيت مال المسلمين بل قال: «رُدُّوا ماعندنَا إلى بيتِ مَال المسلمينَ، فإنّى لم أصِب منْ هَذا المالِ شَيئاً، وإن أرضى التى بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم» .

واستخلص عمر ثمن هذه الأرض ورده على بيت المال تنفيذاً لأمر أبى بكر وجعل يقول «يرحم الله أبا بكر لقد أحب ألا يدع لأحد بعده مقالاً»(٢).

---

(١) فرض مهاجر: مغيب .

(٢) الصديق أبو بكر - محمد حسين هيكل ص٣٢٧- دار المعارف ط٨ .

المروءة بين الصديق والفاروق

الإسلام دين الإنسانية والرحمة، جاء بالهدى والخير والتواد والتحاب والتعاون على البر والتقوى عملاً بقوله تعالى: «وتَعَاونُوا عَلى البرِّ والتَّقوَى ولاتَعاوَنوا على الإثْم والعُدْوان»[1] وقول الرسول الكريم «ليسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يرحَم صَغِيرنَا ومَنْ لَمْ يوَقِّر كَبِيرنَا..» .

ولقد كان الصديق أبو بكر وصاحبه الفاروق عمر رضى الله عنهما يتنافسان فى وجوه الخير وتحمل الأعباء عن الضعفاء والمرضى والمحتاجين...

فهذه عجوز قد أضناها المرض، وأقض مضجعها السقم ولاولى لها ولامعين يحمل عنها تبعات الحياة، ويقوم بما شق عليها من الأعمال ويؤدى لها ماتحتاجه فيما بقى من أيام حياتها، وحين يعلم الفاروق عمر رضى الله عنه بأمرها ويدرك حاجتها إلي المساعدة، فإنه يسرع إليها غاشياً دارها جالباً لها كل ماتحتاجه فى رحلة حياتها، وحين يصل إلى دارها وقد حمل كل ماظن أنها تحتاجه فى شتى شئونها، إذ به يجد أن هناك من سبقه إلى القيام بخدمتها وأداء متطلبات حياتها فيتعجب لذلك ويقول فى نفسه: ومن ذا الذى يسبقنى إلى هذا ومن الذى يظهر له مثل ماظهر لى؟ وحين يسأل الفاروق عمر رضى الله عنه العجوز عمن يقوم عنها بأداء شئونها يكون ردها أنها لاتعرفه فقد كف منذ زمن بعيد بصرها وشلت حركتها فمن أين لها أن تعرفه؟ وحين رأى الفاروق عمر أن أمر تلك العجوز قد أشكل عليه، رأى أن يكمن مترصداً هذا الذى يسبقه إلى القيام بأمر تلك العجوز المسكينة !!

---

(١) سورة المائدة الآية (٢) .

وبينما هو على هذه الحال مترصداً،إذ به يجد الصديق وقد أقبل بالخير يحمله للعجوز، وحينئذ قال الفاروق قولته المشهورة «ماسبقْتُ أبَا بكْرٍ إلى خير إلا سبقنى إليه..» .

وقد صور الشاعر ذلك فقال:

رَأى عُمَرَ يوماً عَجُوزاً بِدارِهـا غَدَا المَوْتُ مِنْها للبقيةِ حَاسِيَـا
فَقَالَ أوَاسِيها وأقْضِى أمُورَهـا فقد عَدِمَت فى المسلمينَ مُواسِيَـا
مَضَى غَاشِيا فى نُهرةِ الصُّبحِ دارَها فألقَى لها قلبِ نُهرةِ الفَجْرِ غَاشِيا
فقالَ لهَا منْ كَانَ فى الحَيِّ سَابِقـى وَمَنْ ذَا الَّذِى يَبدُو له مَابدَالِيَا

كان هذا مافعله الفاروق مع العجوز وماسأل عنه، أما العجوز فكان ردها على الفاروق يتمثل فيما يقوله الشاعر :

فَقَالَتْ كَرِيمٌ يعْترى الدَّار سُحْرَةً فيجمعُ أشْتاتِى ويَرحَمُ مَابِيَـا

وحينئذ قال الفاروق ماصوره الشاعر :

فقالَ سأحْبِى اللَّيلَ أرعَى طُروقَـهْ
وأرْصُدَ سبّاقاً إلى الخَيـرِ سَاعِيـاً

ومَاذا حَدثَ:

نَشَق رواقُ اللَّيلِ عن رَوْنقِ الضُّحَـى
ولكنَّهُ الصِّدِيـقُ مَـنْ كَانَ بَادِيـاً
فألقَى الكلى عن كاهل عز قبلهـا
وماحَملتْـهُ النَّفْـسُ إلاَّ المَعَالِيَـا
وألقَى العَصا فى جَانِبٍ من فِنائهـا
وهيـأَ فيـهِ للقُـدُورِ الأثَافِيَـا

فماذا فعل الفاروق؟

فصَاحَ به الفَارُوق مَاكَان سَابِقـــى
ســـواكَ أبَا بَكْر ولاكُنت رَاضِيـــا
أَنِي كُلِ دَارٍ منْ أَبى بَكر امـــرؤ
إذا أهلُهَا نَادُوا أَجـــابَ المناديـــا
ألا عَائِـــلٌ إلاتمثلـــتَ كَافِـــلَا
ولامِسْتَـــكٍ إلا تَمثلـــتَ آسِيـــا

وهكذا كان الصديق رضى الله عنه سباقاً إلى الخير يقدمه إلى من يحتاجه من رعيته التى أئتمته الله تعالى عليها، ونافسه فى ذلك الفاروق رضى الله عنه ابتغاء مرضاة الله تعالى وإحساسا بالمسئولية تجاه من ولى أمرهم ولم يكن لهم من يعولهم من أهليهم فلم يكن من الخليفة إلا أن يقوم بأمرهم راعياً كل شئونهم .

«يوم وفاة الصديق»

لقد ترك أبو بكر التجارة ليتفرغ لما يصلح شؤون المسلمين، وأن أصحابه جعلوا له من بيت المال مايصلح به نفسه وعياله، فلما رأى أنه مشف على الموت لم تطب نفسه بما أخذ من بيت مال المسلمين بل قال: «ردوا ماعندنا من مال المسلمين فإنى لم أصب من هذا المال شيئاً، وإن أرضى التى بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم.. واستخلص عمر ثمن هذه الأرض ورده على بيت المال تنفيذاً لأمر أبى بكر وجعل يقول: «يرحَم اللّه أبَا بكر لقد أتعب ألا يدع لأحد بعده مقالاً» .

وفى رواية ثالثة فإن أبا بكر توفى وليس عنده دينار ولادرهم وإنما ترك عبداً كان يحمل صبيانه، وناضحاً يسقى بستاناً له وقطيفة قيمتها

خمسة دراهم، وقد أمر بحملها إلى عمر بعد أن يفرغ منه فلما حملت إلى عمر بكى وقال: «لقد أتعب أبو بكر من بعده تعباً شديداً»(١).

إن معظم زعماء الدنيا يتولون السلطان ويكون جل همهم المال الوفير والجاه والعيش النضير، والإرث الوفير لمن يليهم من الذرية، التى تنعم وتعب فى رغد العيش والجاه والسلطان الذى قد يستمر سنين عدداً، هذا هو حال معظم سلاطين الدنيا غالباً - إلا من رحم الله ...

أما الأسوة الحسنة بدءاً برسول الله صلى الله عليه وسلم وتثنية بالسلف الصالح كأبي بكر الصديق فقد خرج بهم إسلامهم وإيمانهم بالله عن قاعدة حكام الدنيا وسلاطينها فى التمتع بلذائذ الدنيا والتحلى بزينتها...

وهاهو رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيش فى الدنيا عيشة الكفاف له ولأسرته، ويترك الدنيا ولاميراث يتركه لوارثيه وكان منه الحديث الشريف «نَحنُ معَاشِر الأنبِياءِ لانورث مَاتركْنَاه صَدقة».

فياالله لحكام الدنيا، وماذا يخلفون وراءهم وأى ثروات يتركون؟ ومن أية الطرق يجمعون؟ وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عاش عيشة الكفاف وخلف الدنيا وليس لديه ميراث يتنعم به الوارثون.. وإذا كان القرآن الكريم قد حض على التأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يأتى ومايذر فقال تعالى: «.. لقد كَانَ لَكُم فِى رَسُولِ اللَّه أسْوةٌ حَسَنةٌ لِمن كَانَ يَرجُو اللَّه والَيوَمَ الآخِر»(٢).

ويقول الله تعالى: «ومَاآتاكُم الرَّسُولُ فخُذُوه ومَانَهاكُم عَنْه فانتَهُوا..»(٣).

---

(١) الصديق أبو بكر- محمد حسين هيكل ص٣٢٧-٣٢٨ ودار المعارف طبعة ٨ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٢١ .

(٣) سورة الحشر الآية ٧ .

وإذا كان هذا هو حال رسول الله صلي الله عليه وسلم بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى أنه لم يترك ميراثاً لوارث، فكيف لايسير أبو بكر على سنته ويتمسك بشريعته وهو من هوصحبة للرسول الكريم وبراً به ووفاء له ومحبة... وتاريخه فى الإسلام خير شاهد ودليل على ذلك ...

لذا فإنه لايدركنا العجب والدهش إن لم يترك أبو بكر ميراثاً يذكر بعد وفاته، وجل ماكان فى بيته وهو المتبرع بماله لنصرة الاسلام سبعة دنانير، كما أوصى بأن يردوا إلى بيت مال المسلمين كل ماكان قد أخذه منه ليقيم به أود أهله بعد أن منعه المسلمون من أن يمارس التجارة وأرادوه أن يتفرغ لشئون المسلمين وبعد تقلده مسئولية الأمة الإسلامية بعد انتقال الرسول الكريم للرفيق الأعلى ...

وقال الصديق رضى الله عنه قبيل وفاته: إن المحرومين والمحتاجين أحق من ابنه .. ولم تقف وصاياه عند هذا الحد بل إنه قد أوصى بأن يرد أهله العبد والأردية التى أخذها والبستان الذى كان يقتات منه خلال فترة ولايته، بل إنه ضن على نفسه بأن يدفن فيما جد من الثياب، ورأى أن المسلم الحى أحق بالجديد من الثياب منه والعادى أولى به منه، وفعل الصديق ذلك، وهو يأمل أن يكون ذلك معافاة له مما قد يظن أنه - وحاشالله- أنه قد ارتكبه حال حياته من الذنوب والآثام ليخرج من الدنيا لا له ولا عليه شئ منها ...

ولحق الصديق بربه جلا وعلا ولم يترك مالا ولا ثروة جمعها خلال تولية المسئولية لوارثيه تؤدى بهم إلى التنعم بها فى الدنيا والتباهى والتفاخر والتكاثر بين الناس، نعم لم يترك الخليفة ضيعة ولا مالا لأى من ورثته، وربما كان ذلك ذا فائدة عظيمة وهو عدم التنازع بين الوارثين هذا يقول هذا لى وذاك يقول بل هو لى وتقع الواقع بسبب الإرث بين الوارثين كما يحدث بين الناس عادة فى الدنيا أما الصديق ووارثوه فلا .....!!

يعبر الشاعر عن ذلك فيقول :

تفقَّدَ عبدُ اللّهِ يومَ وفَاتِه
فقامَ لَه وسْطَ الجنازةِ لاَحِيَا
ومافَاتَهَا إلاَّ دنانيرُ سبعَةٌ
إذا اتزنَتْ بالماءِ لم تَرِ طَامِيَا
فصَاحَ تُراثَ المسلمينَ ومالَهم
وما كَانَ يوماً طَاعِماً منهُ كَاسِيَا
ولكِنْ رأَى مَازادَ عَن حَاجةِ ابنِه
مِنَ المَالِ أولَى بالَّذى بَاتَ طَاوِيَا
وقَالَ وقَد حَانَ الفِراقُ لأَهلِه
إذا مُتُّ ردُّوا عبدَهُم ورَدَائِيَا
وردوا عليهم حائِطِى فى دارِهِم
تقاضيتُها مِنهم وردُّوا صَحَائِيَا
ولا تَدفِنونى فى الجَديدِ فإنَّنا
أحقُّ به من كَانَ فى النَّاسِ عَارِيَا
خرجْتَ مِن الدُّنيا بنفسِى وليتَنِى
خرجتَ معافَى لا عَلَىَّ ولاليَا
ومات ولم يَترُكْ تَليداً لوَارِث
يقومُ بِهِ فى الوَارِثِينَ مُبَاهِيَا
وما نَالَ أبناءُ الخَلِيفَةِ ضَيعَةً
ولا قَامَ منهُم من يَقُولُ تَرَاثِيَا
ولو كَان من يَستثمرُ المالَ لم يَمُتْ
ويترُكْ لهُم بيتَ الخلافَةِ خَاوِيَا

موطن العظة والعبرة من القصيدة

يصدق على الشاعر قول أحد الناقدين «كان الكلام كله منثورا فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها، وفرسانها الأنجاد وسمحائها الأجداد لتهز أنفسها إلى الكرم وتدل أبناءها على حسن الشيم...»(١).

وهكذا نجد هذا الشاعر قد صاغ تلك السيرة مجسدا تلك المكارم العظيمة والأخلاق الكريمة، ليبرزها لنا وليحض الناس على السير على منهاجها والاقتداء بها فى حياتهم، ثم يذرف الدمع السخين ويذكر المسلمين اليوم بالدمع السخين الذين زرفه المسلمون الأولون حزنا على فراق الأحبة محمدا وصحبه، ووفاء وتحنانا لتلكم الذكريات العطرة والسير الحسنة والسلوك القويم والأسوة الطيبة التى أمرنا بالسير على نهجها والتشبث بأهدابها.

يقول الشاعر :

فَذِكْرَكَ فى الأحيَاءَ سالَ مدائِحَا
وذِكْرَكَ فِي الأمواتِ حَالَ مَراثِيا
فمنْ لِى بدَمْعِ المسلِمينَ الذى جَرى
وما سَوفَ يفْدُو للأجنَّةِ جارِيَا
سَنبذُلُ من تِلكَ العُيونِ كرائمَا
ونرخِص من تِلك الدموعِ غوالِيا
وَفاءَ وتحنانَا إلى الزمَنِ الذى
تضوع عن عِطرِ الخلائِقِ ذاكِيَا

---

(١) العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده- ابن رشيق القيروانى جـ١ ص ٢٠.

ثم يعرج مرة أخرى على الأخلاق والفضائل التى كانت سابغة على الدنيا فى تلك الأزمنة يذكر أمثلة منها، أنه كان الناس لايملكون المال ويضنون به ويهلكون أنفسهم فى جمعه، بل كان المال مال المحتاج والسائل والمحروم عملا بقوله تعالى «والَّذِينَ فى أمْوَالِهِم حَقٌّ مَعْلُوم للسَّائِلِ والمحْرُوم»[1] ولا فرق بين مولود أبوه لديه المال الذى به حق معلوم للسائل والمحروم، ومولود أبواه ليس لديهما المال فالتكافل الاجتماعى قائم بين المسلمين لافرق بين غنيهم وفقيرهم وقويهم وضعيفهم، فالكل سواء أمام عدل الله وشرائعه، ولافرق بين السادة والعبيد، فقد سوى الإسلام بين بلال بن رباح وسادة قريش بل إنه سابقهم إلى الإسلام وسبقهم وكان من السباق الذين ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديثه الشريف «السَّبَّاقُ أرْبَعَة، بِلالٌ سَابِقُ الحَبَش، وَسَلْمانُ سَابِقُ الفُرْس وصُهيبٌ سَابِقُ الرُّوم، وأنا سَابِقُ العرب...»

قال الله تعالى :«يَا أيُّهَا النَّاسُ إنا خَلقنَاكم من ذَكَرٍ وأنْثَى وجَعلنَاكُمْ شُعُوبًا وقَبَائِل لتَعارَفُوا إن أكْرَمكُم عِندَ اللَّه أتْقَاكُم...»[2].

لَيالِيَ كانَ النَّاسُ لا المَالَ مالهم
وما هُو إلا مَال مَنْ جَاء بالمَال عَافِيا
وما فَضْل مولُود عَلى مَالِ والِدٍ
وما ذنْب مولودٍ من المَالِ خَالِيَا
ولا فرقَ فِيهم بَينَ مولًى وعَبْدِه
إذا جاءهُمّ عبْدٌ لِمولاهُ شَاكِيَا
وما الحَق إلا حَائِط بَينَ قُوَّة
وضعف لَيسَ العَدلُ إلا تَقَاضِيَا

---

(١) سورة المعارج الآية ٢٤، ٢٥.

(٢) سورة الحجرات الآية ١٣.

الأمنية التى يحمل بها الشاعر ...!!

إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر رضى الله عنه وجُلّ الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين قد ضربوا المثل الأعلى فى السمو والارتقاء فى الإنسانية والحكم العدل والإنصاف بما حقق السعادة للمجتمع الإسلامى تحت ولايتهم، ولاشك فى أن الله تعالى قد اختارهم وفضلهم على الناس أجمعين وميزهم بمزايا القدوة الحسنة وأمرنا بالتمسك بتلك السيرة والاقتداء بتلك القدوة.

والشاعر هنا يتمنى أن يخلق الله تعالى «وهُوَ عَلَى كلِّ شيءٍ قَدِير» من هو على مثال أبى بكر فى تواضعه ولين جانبه وعدله وإنصافه وحزمه وبصره بالأمور فى مدلهمات الأحداث لينقذ الأمة الإسلامية من ويلات تلك الخطوب التى ألمت بها والأحداث التى أدمت سيرتها وألحقت بها الضعة والهوان...

ولقد كان الدافع للشاعر إلى ذكر هذه السيرة العطرة هو الحث على الجد والاجتهاد فى الحياة وطلب المثل العليا والأسوة الحسنة التى تؤدى إلى النجاح فى مسالك الحياة، لأن آخر هذه الأمة لايصلح إلا بما صلح به أولها...»

لذا فإن الشاعر يقول متسائلا ؟؟

أربُّ أبى بَكرٍ سيخلقُ مِثْلَه ... فيدْرِكُ من بُنيانِه مُترامِيَا؟
بَقيَّة إيمانٍ وآثارُ أمَّةٍ ... توارتْ عَنِ الأبْصَارِ إلاَّ بَوَاقِيَا
ذكرتُ أباَ بَكرٍ لِقومى ولَيتنِى ... بلَغْتُ به مَا كُنتُ فى القَولِ رَاجِيَا
لعلَّ سَراةُ الدَّهرِ تبلغُ فجرَه ... فإنِّى أرَى الإصباحَ تَتلوَ الدَّيَاجِيَا

وهذه هى العظة والعبرة من قول الشاعر، يتمنى أن يكون قد أصاب المحز وبلغ ما أراد من إبراز تلك الفضائل وإجلاء تلك السيرة العطرة لقومه ليسيروا على نهجها، لكى يؤدى ذلك إلى بزوغ فجر النهار بعد أن طال ليل الظلمات والبلايا ومدلهمات الأمور التى أثقلت كاهل الوطن، وتركته يئن فى البؤس والشقاء...

ودائما تشرق الشمس ويأتى نور الفجر مبددا ظلمات الجهالة والشر.

الدراسة الفنية

يظهر من تاريخ ميلاد وسيرة حياة الشاعر عبد الحليم المصرى أنه نشأ فى فترة النمو والازدهار الأدبى منذ نهاية القرن الماضى وبداية القرن الحالى ولا غرو فقد كان من أقرانه وأنداده فى تلك الفترة علماء وأدباء أفذاذ ملأوا الساحة الأدبية بإنتاجهم الثر فى شتى ألوان الإنتاج الأدبى، فكان منهم الشعراء والكتاب الثائرون والناقدون ممن حفلت بهم الساحة الأدبية.

وشاعرنا المصرى له ديوان شعرى كبير يتكون من ثلاثة أجزاء وقد بدا من خلال تصفحنا لديوان شعره أنه نظم الشعر فى شتى الأغراض الشعرية التى تطرق إليها معظم الشعراء فى شعرهم، وكان الشعر الذى نظمه الشاعر المصرى- كما بدا من خلال ديوانه- قويا متسقا جزلا ينزع فيه الشاعر إلى إنتاج شعر يكاد يماثل شعر الشعراء القدامى فى عصور القوة والازدهار، وقد كان رائد ذلك الاتجاه فى بعث الشعر وإحيائه فى العصر الحديث هو البارودى الذى انطلق ومعاصروه وبعض من سبقه وكثير ممن أتى بعده- قويا هادرا يكاد يماثل شعر الشعراء القدامى فى عصور القوة والازدهار.

وإذا كان النقاد قد بينوا المسالك والسبل التى تؤدى بكل موهوب فى الشعر كى يصير شاعرا صقيل الموهبة وذلك كما قال الجرجانى : «الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء، ثم تكون الدربة مادة له، وقوة لكل واحد من أسبابه، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز، وبقصد تحصيله منها تكون درجته من الإحسان...»[1].

وهكذا كان شعر الشعراء القدامى وعلى دربهم سار الشعراء الرواد فى بداية النهضة الأدبية فى العصر الحديث والمصرى أحدهم..

---

(١) الوساطة بين المتنبى وخصومه- القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى ص١٥٢.

أعطاهم الله تعالى الموهبة الفذة وأقبلوا على الشعر العربى القديم ينهلون منه ويروونه ويتمثلونه فى إنتاجهم الشعرى، وقد كان لهم فى ذلك مجهود لايبارى، وفضل لاينكر، حين نزعوا بشعرهم إلى شعر الشعراء القدامى، ومن غير شك فإن أعز شئ وأقومه فى اللغة العربية هو تراثها العريق تستمد أصالتها من معينه الفياض، وتفيض فيه الحياة بروافدها العميقة القوية، لتظل قلعة حصينة، ضد الغزو اللغوى والفكرى، ولتحطم موجات الردة العامية المسمومة، وتحارب التعصب الإقليمى البغيض، فتبقى لغتنا موصولة بتراثها الحضارى الضخم ويفيض بحرها الزاخر بالدر الكامن والجمال الأسر...

والأدب فى العصر الجاهلى هو السجل الحافل باللغة العربية وتراثها الشامخ والأدب الجاهلى تراث لغوى وأدبى عريق وضخم، يصور أمة صارت بلغتها وأدبها بعد ذلك هى الأمة التى سادت بحضارتها العربية والإسلامية وغيرت مجرى التاريخ فى العالم كله ، وكانت ولاتزال هى الأساس دائما لكل نهضة أدبية وتقدم ورقى حضارى»[1].

وإذا كان الشعراء القدامى ينتجون شعرا يتسم بالقوة والجزالة، فإنه بالإضافة إلى ذلك يكون متعدد الأغراض، يبدأ الشاعر قصيدته بالوقوف على الأطلال وبكاء الديار، وقد يبدأها الشعراء بالغزل والتشبيب ثم يتبعه بوصف الرحلة والراحلة ومشاق الطريق وحيوان ونبات الصحراء وأخيرا يكون الغرض الأساسى مثلا، وهكذا كان معظم الإنتاج الشعرى عند معظم الشعراء إلا قليلا من القصائد التى خرجت على هذا النمط الذى سار عليه الشعراء... »[2].

---

(١) فى الأدب الجاهلى دراسة ونقد- د. على على صبح ص٤.

(٢) السابق ص ١٦.

وشاعرنا المصرى كغيره من شعراء عصره، كان قد عب من الشعر الجزل الذى نظمه الشعراء الفحول فى عصور القوة والازدهار، وقد ظهر أثر ذلك فيما أنتجه من شعر ملأ به ديوانه بأجزائه الثلاثة، وكان فى معظم شعره يكاد يكون مضارعا لشعر الشعراء القدامى...

ومن غير شك فإن واسطة عقد ديوانه بأجزائه الثلاثة وفريدة نظمه فيما أرى- هى هذه القصيدة بل المطولة التى بين أيدينا موضوع البحث وهى التى جسد فيها شخصية الخليفة الأول لرسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضى الله عنه وأظهر من خلالها سماته المثلى وفضائله العليا وصور من خلال الشعر جوانب تلكم الشخصية العظيمة تصويرا صادقا، من شتى جوانبها وسائر أحوالها والأحداث الجسام التى مرت به خلال رحلته القصيرة فى موقع المسئولية، وتقلده لأمور الدولة الإسلامية وقيامه بالأمر دونهم بعد لحاق الرسول الكريم بالرفيق الأعلى...

ويالها من فترة جد شاقة وحرجةً قد غصت بالأحداث الموجعة والمواقف المؤلمة التى تذهب باللب والرشاد وتدمى الفؤاد...

كان بدؤها بانتقال الرسول الكريم إلى جوار ربه وانقطاع نوره وذهاب وحيه ونضوب مظاهر إنسانيته الشخصية وبره بالناس عامة وما كان يشيعه وجوده صلى الله عليه وسلم فى المجتمع من أمن وأمان وشفقة وحنان، فكان للمجتمع المسلم ولكل المعاهدين معه كل الحب والوفاء مثلهم فى ذلك مثل المسلمين سواء بسواء.

وقد سار صاحبه ورفيقه فى الغار وخليفته فى ولاية أمر الأمة الإسلامية على نفس المنهج وغالب الصعاب حتى غلبها، وكان كما قيل فى مثل الأحداث التى لم ير غيره مثلها، «كان جذيلها المحكك، وعذيقها المرجب...»[1].

---

(١) البداية والنهاية جـ١ ص٢٤٢.

فقد تحمل المسئولية بكل أمانة واقتدار وعبر بالسفينة من أحرج المضايق إلى بر الأمان، وكتب الله تعالى على يديه للأمة الإسلامية الأمن والأمان والسلامة والاطمئنان، وانطلقت بعد ذلك قوية هادرة يتسع مدى خيرها ويعظم أمرها فى شتى الأنحاء وعلى أنقاض ممالك الظلم والاستعباد فى شتى الأرجاء.

وجدير بمن كان مثل الصديق رضى الله عنه أن يتغنى بأعماله الشعراء وأن يجسدوا تلك الأعمال لتكون نبراسا تستضيئ به الأجيال..

وشاعرنا من شعراء الرعيل الأول من شعراء البعث والإحياء والذين كان لهم دور لا يجحد فى رفع راية الشعر وبعثه وإحيائه بعد أن كان مواتا راكدا وها هو يضع بين أيدينا شعره وتصويره مجسدا من خلاله ما رآه ويراه كل منصف جديرا بالتجسيد والتصوير من تلك السيرة العطرة لأول خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفى دراستنا لشعر الشاعر عبد الحليم المصرى فى مطولته «أبى بكر الصديق» نجد أن الشاعر قد سلك مسلك الشعراء القدامى فى إنتاج شعر يتسم بقوة اللفظ وجزالته ويلتزم فيه الوزن والقافية وها هو يفتتح مطولته التى عنوانها «أبو بكر الصديق قائلا ملتمسا العون من الممدوح:

أفِضْنِي أَبَا بَكرٍ عَلَيهِم قَوَافِيَا وأمطِر لِسَانِى حِكْمَةً ومعَانِيَا

وكأن الشاعر بهذه البداية ينادى الممدوح ويطلب منه أن يمده بما يجعله يسترسل فى نظم الشعر ليصير فيضانا يغمر الآفاق ويصوغ مسلك الممدوح فى لفظ كالدر كله حكم غوال ومعان عظيمة، وهو شعر موزون مقفى فى لفظ عذب، ومعان عميقة غزيرة أما أوزانها فقد أتت من البحر الطويل- فعولن مفاعيلن.

ومن غير شك فإن ارتباط الشكل بالمضمون له أهمية كبرى وفائدة عظمى فى إيصال المقصود إلى المتلقى، ولابد فى العمل الفنى أيا كان لونه من أتساق الشكل مع المضمون حتى تتسق الصورة، ولايصح الفصل بينهما فى العمل الأدبى، ولايكون لأى منهما وجود بغير الآخر، وذلك لشدة ارتباطهما وعدم استغناء أى منهما عن الآخر، ومعنى ذلك أن مادة النموذج الأدبى وصورته لاتفترقان فهما كل واحد، وهو كل ما يتألف من خصائص جمالية مختلفة قد يردها النظر السريع إلى الخارج أو الشكل، ولكننا إذا أمعنا النظر وجدناها ترد إلى الداخل والمضمون، فهى تنطوى فيه أو قل تنمو فيه، كما تنمو الشجرة من ساق ضئيلة وتتشعب إلى فروع وأغصان كثيرة»[1] وإذا كان النقاد يفصلون اللفظ أو الشكل عن المعنى أو المضمون فى دراساتهم فإن ذلك لايعنى أنهما منفصلان فى وجودها الخارجى بمعنى أن لكل واحد منهما وجودا مستقلا عن الآخر، ولكنهم اضطروا إلى ذلك الفصل لغايات تعليمية حتى يفرد اللفظ بنعوته الذاتية التى يفضل بها غيره من الألفاظ التى قد تستعمل فى معناه، ويفرد كذلك المعنى الذى يصوره الأديب بصفاته التى يمتاز بها عن غيره من معانى الآخرين»[2].

وعلى فإننا فى الدراسة الفنية تقوم العمل الفنى متكاملا متحدا شكله مع مضمونه دون أى فصل بينهما، وإذا حدث أن فصل بين الشكل والمضمون فإن ذلك يكون بصفة مؤقتة ويكون الهدف من هذا الفصل هو التفسير لما فى الشعر من قيم، وفى دراستنا لشعر الشاعر عبد الحليم المصرى فى بطولته فى مدح أبى بكر الصديق سوف نتناول مايلى :

(١) الصياغة (٢) بناء القصيدة

---

(١) فى النقد الأدبى- د. شوقى ضيف ص ١٦٤.

(٢) قضايا النقد الأدبى- د. بدوى طبانه ص ١٧٣.

اولاً: الصياغة : وصياغة الشعر تكون من ألفاظ ينظمها الشاعر فى سمط كعقود الجمان، وحين نجيل النظر فى هذه المطولة نجد أنها قد زخرت بالألفاظ الجزلة فى عذوبة ورصانة وقد نظمت فى اتساق وقوة ولا غرو فشاعرنا معاصر لكثير من شعراء البعث والإحياء الذين كان لهم دورهم فى المحافظة على الشعر العربى وبعثه من رقدته...

وقد كان هذا الاتجاه الذى راده البارودى تعبيرا أدبيا عن روح الفترة النضالية التى عبأت فيها الأمة الإسلامية كل مقوماتها الحضارية فى مواجهة الحضارة الأوربية الغازية بتقاليدها الاجتماعية والثقافية التى حاولت أن تزحزح تقاليدنا الأصيلة عن مكانها فى نفوس أبنائنا الذين اعتزوا بتراثهم فحافظوا عليه واسترابوا فى كل دخيل»(١).

لقد صار الاتجاه المحافظ في ألفاظه ومعانيه دليلا على تمكن الشاعر من أدوات الفصاحة اللغوية والبلاغة الأسلوبية والصياغة الفنية الأصيلة التى عرفها القدماء باسم «عمود الشعر» وقد كانت تلك سمة عامة للشعر المحافظ فى كل أغراضه وفنونه، صورته هى صورة الشعر القديم، ومادة بنائه هى مادة بناء الشعر القديم وأسلوبه هو أسلوب الشعر القديم فى كل عناصره ومقوماته، إلا أن ذلك لم يمنع الشعراء من تلوين أسلوبهم وتشكيل مادتهم الأدبية وفق ما تمليه طبيعة التجربة والموضوع الشعرى من لوازم الأداء الفنى المتميز فى ألفاظه وعباراته وصوره وموسيقاه، والشعر الإسلامى مثل صادق لهذا التميز الفنى»(٢).

ويقول ابن طباطبا :«إذا أراد الشاعرا بناء قصيدة محض المعنى الذى يريد الشعر عليه فى فكره نثرا، أو أعد له بما يلبسه إياه من الألفاظ التى

---

(١) الاتجاه الإسلامى فى الشعر المحافظ- د. نبيل سليمان طبوشة ص٢٤١.

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

تطابقه والقوافى التى توافقه والوزن الذى سلس له القول عليه، فإذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذى يروقه ابتدأ وأعمل فكره فى شغل القوافى بماتقتضيه من المعانى على غير تنسيق للشعر وترتيب لفنون القول فيه» (١) كما أن «الصورة الأدبية هى التركيب القائم على الإصابة فى التنسيق الفنى الحى لوسائل التعبير التى ينتقيها وجود الشاعر- أعنى خواطره ومشاعره وعواطفه- المطلق من عالم المحسات ليكشف عن حقيقة المشهد أو المعنى فى إطار قوى تام محس مؤثر على نحو يوقظ الخواطر والمشاعر فى الآخرين» (٢).

وبعد نظرات فاحصة فى شعر الشاعر يتضح لنا أنه قد أخذ بحظ وافر من تخير الألفاظ الواضحة، والتراكيب المعبرة عما يجول فى نفسه من معان وأحاسيس فى سهولة ورقة وعذوبة، وفى الوقت نفسه صارت ألفاظه وعباراته متناسية مع عاطفته بعيدة عن التكلف والصنعة، ولاشك فى أن مبعث هذا كله هو تمكن الشاعر من اللغة ووقوفه على أسرارها.

وفى شعر الشاعر عبد الحليم المصرى نجد الألفاظ كلها تتصل بالإسلام وتستمد منه، ففى أول بيت فى المطولة نجد اسم الممدوح الخليفة الأول وقد توجه إليه الشاعر فى مفتتح القصيدة والتماسه الحكمة والصواب والمعانى الغزيرة التى تفيض بالخير مما تبعثه محبة الرسول الكريم والسلف الصالح فى النفوس فى تعبير عما يكنه الشاعر من حب لهم، كما ورد فى شعر الشاعر ألفاظ موحية تعبر عن الإسلام وتدل عليه ومنها قوله مصورا الخليفة الأول بأنه.. شيخ المسلمين.. وقوله راجيا:

---

(١) عيار الشعر- ابن طباطبا ص ٢٣ القاهرة ١٩٥٦.

(٢) الصورة الأدبية تاريخ ونقد- د. على صبح ص ١٤٩.

عَسَى أَنْ يُعِيدُوا مَا أَضَاعُوا مِنَ الهُدَى...

وقوله :

حَتَّى يَرَوْا أَنَّ الخِلافَةَ لَمْ تَكُنْ....
وأَنَّكَ لَمْ تَرُقَّ الخِلافَةَ بالغِنَى....
رَجَوتَ أَبَا حَفْصٍ وآثَرتَه بِهَا وفى حادثة الإسراء والمعراج قال:
أَتَى المَسْجِدَ الأَقصَى وَرِدْ بُرَاقَه...
فَصَلَّى بِمَنْ فِيهَا وَكَلَّمَ رَبَّه... وقوله معبرا عن المسجد الحرام
والمسجدَ الأَقْصَى.. العَتِيقَيْنِ...
وأَخبارَ السَّماءِ.. وجِيدُ النُّبوَّة... والآيات
ووجهه الذى يطل عليك من القرآن.. فى تلاوته.

والاقتباس من آى القرآن الكريم وألفاظ كما فى قوله :

وَرُوحُ بِلالٍ قَابَ قَوسَينِ من نَوى...

ولفظ الجلالة فى كثير من أبيات المطولة كما فى قوله :

بِقُربِهُ من رَحمةِ اللهِ... وقَفتَ بِبابِ اللهِ...
أَطلَّت عَلَيه رَحمةُ اللهِ... وأَيْمُ اللهِ...
وكان لَهُ فِى اللهِ.... وليسَ يرَى ما فِى يَدِ اللهِ..»
وقال رَسُولُ اللهِ أهلَك فاكْفِهم فقلْتُ أليسَ اللهُ دُونِى كَافِيا
فَنامَ وَوَعْدُ اللهِ يُؤْنِسُ قَلبَه...
ولما أراد الله نُصْرَةَ دِينِهِ.... بِبدر رأى الصِّدِّيق للدِّين وَالِيا
وغير أى بكر أرَى اللهَ آبِيَا
فإن اللهَ مازَال بَاقِيَا...» رَضِيتَ بِهَا فِى اللهِ...

وصلح الحديبية فى قوله :

تَبَيَّنْتَ فِى صُلْحِ الحدَيبيةِ الهُدَى وظنُّوكِ فيه للنَّبىِّ مُجَارِيَا

واسم الرسول الكريم قد عطر شعره فى المطولة في مواضع كثيرة ومنها قوله:

وقل لرسُولِ اللهِ لَمْ أَعْدُ مَدحَهَ...

مَقَامُ رَسُولِ اللَّهِ فوقَ قَصَائِدى

لَما كُنتَ عَنْ رأيِ النَّبى بِعَادِل

كما اشتملت المطولة على ألفاظ ومصطلحات إسلامية.

ومثال ذلك : لفظة الخلافة- الحديبية مثل قوله

تبينتَ فى صُلْحِ الحديبيةِ الهُدَى وظنوكَ فيه للنَّبى مُجَارِيا

آثرتَه- مُؤثِرا - الحسن- الحق - القاضى- المسجد الأقصى- البراق- الصلاة- الارتداد عن الإسلام- اهتدى- الدين - بلال رضى الله عنه- الإيمان الراسخ- ذكر معركة تبوك- الهجرة- المحبة الغار- ووعد الله- الصديق - بدر- الدين- على رضى الله عنه- صلح الحديبية- أبو حفص- رب البيت- أيم الله- أكف ابن عبد الله - الإحسان.

وفى وصيته لجيش المسلمين بقيادة أسامة بن زيد امتلأت بألفاظ موحية بمايريد إسداءه من نصح للجيش:

لاتحملوا غير زادكم- لاتفسدوا عذبا من الماء جاريا- لاتهلكواُ زرعا- لاتهتكوا حمى.... لاتستبيحوا نسوة أو ذراريا...لاتحرقوا باللاتذين كنائسا.. لاتهدموا باللاجئين مغانيا... لاترهقوا الأسرى.. ولفظ الهيجاء يدل على ما عاناه المسلمون فى فتح البلاد والممالك ونشر الإسلام فيها.

فإذا تحدث عن زكاة المال ومنع العرب لها كان اختياره دقيقا لألفاظ تدل على ذلك منها : الإتاوة- يرفدوا- جابيا- السرايا- النقع - خالد بن

الوليد يخوض بصيداء البطاح الأعاديا- مضى كدوى الرعد- أى الحسامين خالد فإذا ذكر الحرب مع الروم- ذكر البلقاء - المواضى- الوغى- الرماح والخيل فى حرب الأعداء والأسر... وفى شغل العرب بما يفيد كانت الفتوح ممثلة شاغلة لهم- يوم الحساب وفى عبور خالد بن الوليد بادية السماوة نجده يستعمل الألفاظ الدالة على ذلك ديمومة- لايقبب الضب قيظها- صحراء السماوة- جوف النياق ظمئوا- بطون جمالهم- نفوسا صواديا...

كما يذكر قادة الفرس وملوكهم ممن كانوا يحاربون الإسلام مثل هرمز وسلاسله التى ربط بها جنوده فسحبوا منها، كما تسحب القلاص النواجيا وكذا الفرس والروم وكسرى وقيصر والعياهل والجنود...

وفى الحكم نرى لفظ الحكومة- الخلافة- الذر- شويهات- الجوارى فإذا تحدث عن الأسواق وعمل الخليفة كانت الألفاظ المستعملة هى الأسواق بضاعة- شاريا- تجارة- بزازا- راعيا- فرض مهاجر- ثوبيك باليا- بيت مال المسلمين.

كما اشتملت القصيدة على ألفاظ يكتنفها الغموض وتحتاج إلى الكشف عنها فى المعاجم ومنها : أفضنى- النبراس- غيداق- جونة العياهل- المرازب- الصولجان... الأواخى- بأصلت- نهرة الفجر كما احتوت على ألفاظ عامية مثل لفظة كابيا- ذاكيا- تهاديا- متهاديا فراخ- هابيا- ناسيا- حابيا- ناديا- ماشيا- أتمشى- أحسه- خابيا- صاحيا- حانيا- شاريا- إتاوة - مجاليا- غاليا- إباءة...

العبارات:

فى الكثير من ألفاظ القصيدة جزالة وقوة، كما تحتوى على الرقة والعذوبة والأساليب محكمة دقيقة فى تركيب متناسق مصقول والشاعر أى

شاعر يصير كالنحات الماهر يصقل تمثاله بمايضفى عليه من لمسات جمالية، أما الشاعر فيكون ثراؤه اللغوى وعمق معانيه وحاسته الفنية كل تلك أمور تؤدى إلى الصقل الغنى فى الشعر...

ومن غير شك فإن الحديث عن العبارة فى العمل الأدبى يتصل بالحديث عن اللفظ المعبر، فالعبارة مجموعة ألفاظ متسقة على نحو معين لأداء معنى ذهنى أو شعورى ولاشك فى أن هذه الألفاظ لاتستطيع أن تعطى دلالتها كاملة إلا فى هذا النسق، وتستمد العبارة دلالتها فى العمل الأدبى من مفردات الدلالة اللغوية للألفاظ، ومن الدلالة المعنوية الناشئة من اجتماع الألفاظ وترتيبها فى نسق معين ثم من الإيقاع الموسيقى الناشئ من مجموعة إيقاعات الألفاظ متناغما بعضها مع بعض ثم من الصور والظلال التى تشعها الألفاظ متناسقة فى العبارة..

وعلى هذا فإننا حين ننظر في العبارة فى شعر الشاعر فإننا ننظر إليها بمعيار دلالة كل لفظ وفق مايدل عليه فى المعجم وبمعيار آخر هو دلالتها على المعانى من خلال اتساقها مع سواها من الألفاظ من أجل أن تدل مجتمعه على معان ذهنية وشعورية فالقصيدة من البحر الطويل الذى يناسب مواقف الحماسة، وبوائم العاطفة الثائرة، كما أن القصيدة في نسقها التعبيرى نموذج لطريقة القدماء فى النظم من حيث متانة الأسر وقوة السبك وائتلاف أجزاء الكلام ومناسبة الألفاظ للمعانى وخلو الألفاظ مما يخل بجمالها، ومن غير شك فإن العبارة فى نظم الشاعر قد تأثرت بالثقافة الإسلامية وبخاصة فى القرآن الكريم باعتباره المصدر الأول للثقافة الإسلامية حيث الاستفادة منه والاقتباس والنهل من معينه الثر ومن غير شك فإن الروح الدينى هو عماد الأفكار التى يتضمنها هذا الشعر فلابد أن يعبر عنها بألفاظ من معجم الدين وليس أغزر من القرآن كتابا يستمد منه المتأدب زاده فى توشيه أدبه...

المحسنات البديعية:

كانت للشعراء المحافظين عناية شديدة بتجويد أسلوبهم وإتقان صياغتهم حيث جاء شعرهم ناصع البيان مشرق الديباجة واضح الفكرة في أسلوب جزل وعبارة متسقة، واشتمل فيما اشتمل عليه من جودة الألفاظ وسلامة التركيب على المحسنات البديعية التى كان لها دورها فى إضفاء الروح الجمالية على الصياغة الفنية والسمات الأسلوبية، ولكن الملاحظ أن تلك المحسنات لم تكن هدفا يعنيه الشاعر ويقصده ويكون جل وكده ومعظم سعيه بل إنها كانت تأتى عفوية لاتكلف فيها وبصورة طبيعية فى التعبير لم تفسدها الصنعة وإضافة إلى ذلك فإن الشعراء لم يجدوا أنفسهم بحاجة إلى مثل هذه المحسنات البديعية والتلفيقات اللفظية بعد أن خلص البارودى الشعر من أوضاره وأقاله من عشرته وذلك بتخليصه من قيود البديع والصنعة التى كبلته خلال عصور سبقت، كما كان للناثرين فى ذلك العصر أثر بارز فى تنقية الأسلوب النثرى هو الآخر من الأغلال البديعية والصنعة اللفظية.

كما كان لنمو الوعى الإسلامى وبروز تيار الحركة القومية أثر فى توجيه أنظار الشعراء إلى العناية بإظهار مزايا الإسلام وبعث أمجاده، والعمل على إحياء التراث العربى والإسلامى، وانشغل الشعراء بتصوير أحداث الأمة الإسلامية ورسم أبعادها الوطنية والقومية والدينية. وكانت تلك العوامل سببا فى التخفف من المحسنات البديعية أو التخلص منها وبدا ذلك واضحا فى شعر المحافظين عامة والإسلامى خاصة حيث لم يجد الشعراء أنفسهم بحاجة إليها.

وقد سلم الشعر العربى فى مصر من سخافة التلفيقات اللفظية وركاكة الابتذال ثم اتجه إلى الفحولة والجزالة وذلك بسبب ظهور الحركة

القومية ويزوغ فجر الثورة العرابية، وعزفت العقول عن الجمود والإسفاف إلى السلامة والتجويد وكان مرد ذلك لسببين :

أحدهما: رواية الشعر القديم والإقبال عليه والعب منه ومعارضته والاحتذاء به والاقتباس منه ثم تمثله والنسج على منواله بعد ذلك كما كان للطباعة دور مهم فى بعث روح النهضة الشعرية وإقبال المتأدبين والقراء على ما تم نشره من إنتاج أدبى ويقظة المتأدبين والمطالعين للإنتاج الأدبى.

وهناك عامل آخر ساعد على تجويد الشعر العربى وعودته إلى ما كان عليه فى عصور القوة والازدهار وهو عامل الدين، وذلك أنه لما شاعت روح النهضة فى الشرق أحس المسلمون بالأسف على ما أصابهم من الضعف والهزيمة بعد أن كانوا فى قوة وسيادة، وقد أدى بهم ذلك إلى إحساسهم بقوة بأنهم لا موئل لهم ولا أمل فى حياتهم إلى تجديد سلطانهم ومنعتهم إلا بالرجوع إلى الإسلام فى أيامه الأولى أيام الجد والغلبة والفطرة السليمة الخالية من البدع والمحدثات وعوارض العصور الأخيرة وفضول الأعاجم والمقتدين بهم، فأصبح كل حديث متخلف عنوانا للترف والعقيدة المدخولة والعربية المشوبة، وأصبح كل قديم قريب من الإسلام فى صدره الأول عنوانا للصحة والمتانة وعصمة من الضعف والركاكة، وعاد طلاب المعارف الدينية إلى ما كان عليه خلفاء الدولة الأموية والعباسية، حيث كانوا يطلبون لأبنائهم الفصاحة فى البادية، ويقرنون بين سلامة لغة القرآن وسلامة العربية على حال البداوة، ومن هذه الوجهة سقطت المحسنات اللفظية والبدع المتأخرة عند أناس لم يسقطوها من وجهة الذوق الأدبى والملكة الفنية، ولا كان ميسرا لهم أن يسقطوها من وجهة الذوق والفن لو اعتمدوا عليها دون الاعتماد على الغيرة الدينية والنعرة البدوية»[1].

---

(١) شعراء مصر وبيناتهم في الجيل الماضى- العقاد- ص ٤٣-٤٤.

أما بخصوص شعر الشاعر عبد الحليم المصرى فى مطولته موضوع الدراسة فقد وجدت المحسنات فى شعره، ولكنها كانت بصورة تظهر المعنى وتجليه، دون تعمل أو تصنع يربك البناء ويخل بتناسقه مما يؤدى إلى ركاكته وضعفه بما يخدم الهدف الشعرى ويزيد جمال المعنى.. ومثال ذلك فى شعر المصرى من الجناس قوله :

إِذَا الحَقُّ حَالَتْ جونَةٌ دُونَ شَمسِه
رَأَوْا قَبَسًا مِنْهُ إِلَى الحَقِّ هَادِيَا
وأَصْبَحَ صَوتُ الحَقِّ فِى الأَرضِ خَافِتًا
وأَصبَحَ وَجْهُ الحَقِّ فِى الأَرضِ كَابِيَا

ومن الطباق قوله :

يُقَرِّبُهُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ حِينُهَا ويزدادُ بالإقصاءِ مِنْهُ تَدانِيَا
كَرِيمٌ يَرَى مَافِى يَدِ النَّاسِ فَانِيًا ولَيسَ يَرَى مَافِى يَدِ اللَّهِ فَانِيَا
رَأَى نُورَ عَيشٍ فِى ظَلامٍ مَنِيَّةٍ يَلُوحُ أَبُو بَكْرٍ بِهِ متهادِيَا
نَشَقَّ رَوَاهُ عَنْ أُسَامَةَ رَاكِبًا يُشَيِّعُهُ فِيهِ الخَلِيفَةُ مَاشِيَا
رَأَى جَمعَهُم فِى الحَرْبِ دَاءً وإِنَّمَا رَأَى وَحْدَهُ الصِّدِّيقُ فِيهَا تَدَاوِيَا
فَبِينَا يَرَونَ السِّلْمَ أَشْفَى لِجُرْحِهِم ويجتنبونَ الحَرْبَ مِنهَا تَفَادِيَا

ومنه الترصيع كما فى قوله :

كَرِيمٌ يَرَى مَافِى يَدِ النَّاسِ فَانِيًا وَلَيسَ يَرَى مَافِى يَدِ اللهِ فَانِيَا
مُرِيهِ يَقُمْ بِالمُسْلِمِينَ مُصَلِّيًا فَإِنْ كُنتَ فِيهِم أَوَّلًا كَانَ ثَانِيَا
وما كُنتَ يَومًا فِى الحُكُومَةِ جَانِيًا
وَلاكُنتَ يَومًا بِالخَلائِقِ زَاهِيًا

التضمين كما فى قوله :

أَتَى المَسْجِدَ الأَقْصَى وِردَّ بَرَاقَــه
إِلى الطبقاتِ السَّبْعِ لَمْ يخشَ عَادِيَـا
وروحَ بِلالٍ قابَ قوسينِ مِنْ نَــوًى
تودِّع مــن أطــلالِ جسمٍ بواليــا
فَيَا هادِمَ العزَّى ضَرِبتَ فَلَمْ تَــذَرَ
بِهَا سَادِنًا إلاَّ إلــى اللَّــهِ جَاثِيَـا
فَسائِل بِه الآياتِ كم حَفظت لَــهُ
عَلى الدِّينِ مِن بَعْدِ النَّبِيِّ أيَادِيَــا
يُطِلُّ أبُو بَكْرٍ بِكُــلِّ صَحِيفَــةٍ
عليك مِنَ القرآنِ إن كُنْــتَ تَالِيَــا
يُقَرِّبُهُ مِنْ رَحمةِ اللَّــهِ حِينَهــا
ويزدادُ بالإقصَــاءِ مِنْــهُ تَدانِيَــا

ففى معظم شعره نرى ألوانا من الصيغ البديعية قد وشى بها الشاعر نظمه فى غير تصنع ولاتعمل يفسد المعنى ويؤدى إلى ركاكة اللفظ وتهافت البناء الشعرى.

الموسيقى الشعرية :

موسيقى الشعر عنصر هام من عناصر الصياغة له تأثيره فى النفس لأنه يساعد على أن تصل إليها الأفكار والمشاعر فى صورة صوتية تأنس بها وتتفتح لها وتجد فيها من المتعة مالاتجده فى الكلام العادى المجرد من هذه الموسيقى، ومنذ أن كان الشعر كانت الموسيقى عنصرا جوهريا فيه حتى لقد قيل... إن الشعر موسيقى ذات أفكار..»[1].

---

(١) البلاغة- د. عز الدين اسماعيل ص ٤٧.

وهذا اللون من الموسيقى يعتمد على ظواهر واضحة في الصياغة من حركة الوزن وإيقاع القافية، ويمكن للأذن أن تدركه وتتابع حركاته وسكناته ويسمى ذلك بالموسيقى الظاهرة، كما يعتمد على لون آخر من الإيقاع الخفى الذي يأتى من مجموع الدلالات والإيحاءات الفكرية والشعورية التى تتعاون عليها الألفاظ ونسق التعبير والخواطر والصور ويسمى ذلك بالموسيقى الداخلية(١).

ونظرة منا على شعر - المصرى فى مطولته هذه لنرى موقفه فيها من الموسيقى الشعرية داخلية وخارجية- نرى أن الشاعر لم يخرج فى قصيدته عن دائرة الأوزان العربية المألوفة حيث صاغ قصيدته من بحر الطويل فعولن مفاعيلن ولم يخرج عن ذلك إلى رجز أو شطر أو خلاف ذلك.... وبذا يكون الشاعر قد آثر النهج القديم فى أوزانه فى القصيدة وعزف على الأوتار التى سبق أن عزف عليها الشعراء القدامى قبله، وكان شعره داخل دائرة البحور التى حددها الخليل واستنبطها من أشعار العرب فإذا تطرقنا إلى القافية فيها أيضا وجدنا شاعرنا قد التزم فى أغلب شعره فى القصيدة قافية واحدة لم يحد عنها ولم يكن له خروج عليها وشكل ذلك تمسكه بموسيقى الشعر الخارجية.

أما من حيث الموسيقى الخفية فإن الشاعر قد عبر عن مشاعره وعواطفه الإسلامية سياسيا واجتماعيا تعبيرا صادقا أدى فيها اللفظ بمدلوله اللغوى وحسه الموسيقى وطاقته الشعورية دوره فى نقل إحساس الشاعر وفكره إلى المتلقى، حتى لتحس وأنت تستمع إلى القصيدة أو تقرؤها أنك أمام بناء فنى متكامل قد وضع فيه كل شئ فى موضعه فى

---

(١) البلاغة - د. عز الدين اسماعيل ص ٤٩.

دقة وإحكام على يد فنان ماهر يدرك أسرار الجمال ويعرف مواطنه فتشعر كأنك أمام لحن موسيقى متناسق النغم ينساب إلى النفس فيثير أحاسيسها ومشاعرها وهذا التناسق الفنى يتنوع بحسب المعنى الذي يريد الشاعر أن يعبر عنه...

الصور الخيالية:

الأدب صورة المجتمع فيما مضى وفيما يأتى من الأزمان تصويرا لألوان الحياة مادية وشعورية وكل ذوى الإبداع يصورون بوسائلهم المتاحة فنونهم المختلفة والشاعر أحدهم يصور بنظم الكلمات نسقة التعبيرى، والصورة الشعرية هى بعث الفكرة، وهى جوهر التعبير الفنى فى الشعر العربى، وهى الوسيلة المثلى لنقل مايحسه الشاعر ممثلا فى أفكاره المجسدة، والتى تنقل إلى القارئ عاطفة الشاعر وتجربته وتنقل كذلك فكرته التى انفعل بها، وهى لهذا وسيلة من وسائله فى استعمال اللغة على الوجه الذى يكفل نقل مشاعره وأفكاره فيؤثر فى نفوس قرائه»[١].

والصورة الأدبية هى التركيب القائم على الإصابة فى التنسيق الفنى المحى لوسائل التعبير التى ينتقيها وجود الشاعر- أعنى خواطره ومشاعره وعواطفه- المطلق من عالم المحسات، ليكشف عن حقيقة المشهد أو المعنى، فى إطار قوى نام محس مؤثر، على نحو يوقظ الخواطر والمشاعر فى الآخرين[٢].

---

(١) الاسلام فى شعر شوقى- د. أحمد الحوفى ص٢٧٣.

(٢) البناء الفنى للصورة الأدبية فى الشعر- د. على صبح ص ١١.

والصورة الأدبية أصدق تعبير عما يجول فى النفس من خواطر وأحاسيس، وأدق وسيلة تنقل مافيها إلى الغير بأمانة وقوة، وأجود موصل إلى الآخرين فى سرعة وإيجاز ووفرة، والصورة أجمل وأنضر طريقة فى شد العقل والخيال إليها وربط الإحساس بها، وتجاوب المشاعر لها، وإحياء العاطفة وسحر النفس»(١).

وهذه الصورة الشعرية وليدة الخيال الذى يستمد صوره من المعلومات وأنواع التجارب وانعكاسات الحياة فى النفس»(٢).

فإذا نحن بحثنا عن الصور الشعرية التى أنتجها الخيال فى شعر الشاعر عبد الحليم المصرى فى هذه المطولة وجدنا أثر العاطفة الدينية فى توجيه الخيال نحو القيم والمعانى الإسلامية، ورأينا الخيال يحلق فى أجواء هذه المعانى الإسلامية ويسترفد مضامينها ويجسد حقيقتها ويستلهم روحها وبذلك كان الخيال عنصرا هاما من عناصر التعبير عن العاطفة الإسلامية وعن الأفكار والخواطر الدينية فى أشكالها السياسية والإجتماعية والحضارية».

وفى شعره فى المطولة موضوع دراستنا صور شعرية كلية مؤلفة من صورة جزئية مترابطة ترسم مشهدا عاما، كما نجد من خلال المطولة أيضا صورا جزئية... فمن الصور الكلية قول الشاعر يصور حادثة الإسراء والمعراج وماتعلق بها :

أَهَابَ بِرِجَالٍ به يَومَ نُبئُوا ... وقَالُوا ألَم تنظُر نَبِيكَ سَارِيَا
أتَى المسجِدَ الأقصَى وَرد بُراقَه ... إلى الطبقَاتِ السَبعِ لم يخْشَ عَادِيَا

---

(١) البناء الفنى للصورة الأدبية فى الشعر- د. على صبح ص ٣٣.

(٢) العامل الدينى فى الشعر المصرى الحديث. د. أحمد الحوفى ص٥٤٤.

فَصَلَّى بِهِنَّ فِيهَا وَكَلَّمَ رَبَّهُ وأَصْبَحَ فِي بَطْحَاءِ مَكَّةَ دَاعِيَا
أيطْوَى إِلى أَقصَى المَتِيقِينِ لَيلَةً ونَطوِى إِليه أَشْهُرًا ولياليَا
ويأتِي بأخبارِ السَّماءِ وإِننَا لنجهَلُ قِيدَ الشِّبرِ مَا كَانَ خَافِيَا
فزكَّى أَبُو بَكرٍ وصدَّق قَولَهُ ومَنْ قَالهَا حَاشَاه ظَنَّ مُدَاجِيَا
ولولَاهُ لا ارْتدَّ الفريقُ الَّذِى اهتَدَى
وعَطَّلَ مِن جِيدِ النُّبوةِ حَالِيَا
وأَصْبَحَ صَوتُ الحَقِّ فى الأرضِ خَافِتًا
وأَصبحَ وجْهُ الحَقِّ فِى الأَرضِ كَابِيَا

وصورة تعذيب بلال وافتداء أبى بكر له بماله وتحريره من الرق يقول الشاعر:

أُريتَ بِلالاً والسِّياطُ كأنَّهَا مَدالِعُ نَارٍ تَترك المَاءَ ذَاكِيَا
إذا حَميتْ أذنَابُها ماتلمَّسَتْ مَقَابِضُها دُونَ الفِرارِ أمَانِيَا
تَسيلُ دماً حتَّى كأنَّ بجلدِها جُروحًا متَى أنكثنَ سِلنَ دوَامِيَا
ورُوحُ بِلالٍ قابَ قوسينِ من نَوى تودَّع مِن أطلالِ جسمٍ بَوَالِيَا
يقرِّبه منْ رَحمةِ اللَّه حينهُا ويزدَادُ بالإنصَاءِ منهُ تَدانِيَا
وإيمانهُ تحتَ المنيَّةِ راسِخٌ إذا زَحمتْهُ تنل منْهُ رَاسِيَا
فلمَّا أفاضَ النفْسَ إلاَّ صِبابَةً إذا ما رآها الموتُ لم يَدرِ مَاهِيَا
أطلَّت عليه رحمةُ اللَّه من يَدٍ
ترَى البرقَ فِى دِيباجةِ الغيْثِ رَانِيَا
رأَى نُورَ عَيشٍ فى ظَلامٍ منيةٍ يلوحُ أبُو بكْرٍ بِهِ متهَادِيَا
تَعرَّضَ مَابينَ الحِمامِ وبينَهُ وكانَ لَه فى اللَّه بالمالِ قَادِيَا
كريمٌ يرَى مافِى يَدِ النَّاسِ فَانِيا وليسَ يَرَى مَافِى يَدِ اللَّه فَانِيَا

وصورة الهجرة واقتداؤه رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه يقول:

وَهاجَرَ فاستَندَى المحبَّـة صَاحِبـا
مع الخطْبِ طلاَّعاً عَلى العَهْدِ وَافِيَـا
تقدَّمَتَه فى الغَـارِ تستقبـلُ الأذَى
كذَلِك صَدْرُ الرُّمح يَلقَى العَرَادِيَـا
فَنامَ وَوَعْـدُ اللّـه يؤنِسُ قَلبَـه
وخلَّف يقظَاناَ من الحـزْنِ باكِيَـا
إذا لَدغتَك الجنُّ ألفتَـك صَابِـرا
على السَّم تخشَى أن تُروِّع غَانِيَـا
وما انتبهت عينَـاه لولاتساقَطَـتْ
دمُوعُ أبِى بَكـر عَلَيـه هَوامِيَـا

وما أفجع تصويره لذلك النبأ الجلل ألا وهو نبأ وفاة الرسول الكريم يقول :

وَرِيعَ أبُو حَفـصٍ بمَـوتِ محمَّـدٍ
فهاجَ كما استعديتَ فى الفِيلِ ضَارِياَ
فقالَ وربِّ البيـتِ لسـتُ بمنشِـنٍ
إذا قلتمُوهَـا أو أقطُ النوَاصِيَـا
وأنسَاهُ هولُ الخطـبِ آيـةَ ربِّـه
وليسَ أبو بَكر على الخطبِ نَاسِيَـا
نُهىَ لم يزدْهَا الهَـوْلُ إلا حصافَـةً
إذا ما زعزعَت منهَا الرِّيَاحُ رَوَاسِيَـا
فلما استبانَ الموتَ حينَـا بأبلـغٍ
مسجَّى من الإشرَاق يحسَبُ ضَاحِيَـا

أهابَ بهم ياقومَ مَاتَ محمدٌ وألقَى على شطِّ الخلودِ المراسِيَا
فمن ظنَّهُ ربّاً فقد مَاتَ ربُّه وإلا فإن الله مـازال باقِيَـا

وفى موقعة اليرموك وقيام خالد بن الوليد بنجدة المسلمين واجتيازه لبادية السماوة ومافعله من أجل أن يجنب الجيش خطر هلاك محقق، وليصل به إلى ميدان المعركة موفوراً وقادراً على انتزاع النصر من الأعداء يقول :

وهلْ عَلِم اليرمُوكَ خطَّةَ خالِـد وماكَان فِى أقصَى المعالِك ثاوِيَا
وديمومةٍ لايقبَبُ الضَبُ قيظَهـا ولم تسمَع فى الدَّهر للجنِّ حَادِيا
رَمَاها بصحَراءِ السَّماوة خمسة وأترعَ من جوفِ النِّياقِ سَواقِيَـا
إذا طمئوا شقُّوا بُطونَ جمالِهم وبلُّوا نفوساً فوقهُنَّ صَوادِيَـا
لقد شربتْ تِلك الجمالُ لغيرِها ولو عَلِمتْ لم تَشرَبِ الماءَ صَافِيَا

وصورة الجيش المسلم وقد ألحق الدمار والبوار بجيوش كسرى وقيصر وزلزل العروش وأطارنعيها فى الآفاق يقول :

وهل أغنتِ الأغلالُ عن جَيشِ هُرمزٍ
وهل قَدحَتْ منه السَّلاسِـلُ وَارِيَـا
وهل قُرنوَا إلا لأن يُسحَبُوا بهَـا
كما يَسحَبُ الرَّاعِى الفِلاَصَ النَّواجِيَـا
نبينَا يُقولُ الفُرسَ والرومُ عَاجِـزٌ
أسلْـتَ عليَهم بالجنُـودِ الرَّوابِيَـا
وفاجأتَ بالجيشَينِ كِسْرَى وقيصَـرا
وطيَّرتَ للعرشَينِ فى الشَرقِ نَاعِيَـا
وماسَمِعتْ منكَ العَياهِلُ فاتحـاً
ولانَظَـرتْ مِنكَ المرَازِبُ غَازِيَـا

وصورزة ذى الكلاع اليمنى فى شعره يقول :

غداةَ تجلّى ذِو الكلاع بتاجه وأشرق من أبْراده مُتَرائبا
يكادُ من الإغراقِ يفهقُ بالحُلى وأقدامهُ كادَتْ تمجُّ الغَواليا
إذا الشمسُ حيّته وعنّتْ فريدة يدحرجُها بالصَّولجانِ تَلاهيا
وإن نظرت مَنّت على النُّور عينه كما لو يكونُ النَّور بالعَين رَائيا
مشَى ألفَ عَبدٍ مثقلينَ أمامَه إذا هزهم للجود هزَّ الغواديا
فلما رأى من نسج تيم مُجاسِداً يكادُ يرى فيها الخليفة عاريا
تولّتهُ من أمرِ الخلافةِ دهشةٌ فألقى الحِلى والخزَّ وارتدّ حافيا
وقال كذا دينَ المساواةِ فلتكُنْ خلائقُه حرّيّةً وتآخيا
ومن ضَمنَ الإجلالَ فى كلّ بُردة رأى مَاوقاهُ الحرَّ والبَرْدُ كافيا

وصورة الخليفة وقد تقلد أمر المسلمين يسعى إلى السوق متاجراً عائلاً أهله إلى جانب رعايته شئون المسلمين بعد أن صار خليفة لهم، ولكن المسلمين يقولون: كيف ذلك وقد صرت خليفة فيقول قولته المشهورة: «إن أضعتهم كنت لمن سواهم أضيع» وحينئذ يفرض المسلمون له عطاء من بيت مال المسلمين يقول الشاعر :

وسَاعٍ إلى الأسْواقِ يُزجِى بضَاعَةً ويسألُ فيهَا اللَّهَ والنَّاسَ شَارِيَا
وماجهِلوا أنَّ الخليفَةَ بينَهُم ولكنَّ حياةُ الدِّين كَانتْ تسَاوِيَا
فقيلَ لَهُ ألهتْكَ عنَّا تجَارةً إذا عُدتَ بزّازاً فلاتكُ رَاعِيَا
فقال أبُرجَى رَعيُكُم فِي خلاَتِى إذا كُنتُ فيهَا لستُ أرعَى عِياليَا
فقالُوا لَهُ نعطِيك ثرضَ مُهاجِر ونأخذُ مِنْ ثوبيكَ مَاكَانَ بَاليَا
فقالَ لقدْ أغنيتمُونِى بقرضكُمْ وحَسبى مَاسدَّ الطَّوَى وكَسانِيَا
كفيتمُ أبَا بكرٍ فردّوا تجارتِى إلى بيتِ مَالِ المسلمينَ ومَالِيَا

وكل المطولة غالباً - صور كلية تبرز أعمال الصديق وجهاده فى سبيل نصرة الإسلام والمسلمين وإقامة مجتمع الحق والخير .

وتشتمل المطولة أيضاً على الكثير من الصور الجزئية التى تجسد بدورها المعنى وتظهره مثل التشبيه والاستعارة والكناية ...

فمن التشبيه قول الشاعر :

وَرِيعَ أبُو حَفصٍ بِصوتِ محمَّـــد
فهاجَ كما استعدبَت فى الفيلِ مَارِيَا

وقوله:

أريتَ بلالاً والسِّياطُ كأنهَا مَدَالِعُ نَارٍ تترك الماءَ ذَاكِيَـــا
تَسِيلُ دماً حتَّى كأن بِجِلدِهَا جُروحاً متَى أنكثنَ سِلْنَ دَوَامِيَا

وقوله :

وطَارُوا بأسبابِ القِتالِ كأنَّهم فِراخُ حمامٍ صادَفت منكَ هَازِيَـا

وقوله :

نَهضتَ بِأمرِ النَّاسِ والدِّينُ لم يَزلْ
رَضِيعـــاً بأطـــرَافِ الجزيرةِ حَانِيَـــا

وقوله:

فساروا كذاتِ الرَّعدِ إنْ طفَرتْ بِهم
مِـــن الشَّامِ نَهراً خَيلُهم سَـــال دَامِيَـــا

وقوله:

وإن خَمدوا حَتَّ العَجاجِ تَسَمَّعُـــوا
كصوتِ أبِي بَكر فهاجُـــوا العَوالِيَـــا

وقوله:

مَضَى كدوىِّ الرَّعدِ بين أَنيزِهم بأصلتَ لاتلقَى الظُّلَى منهُ وَاقِيَـا
كأنَّ المواضِى خَالفَتْهم عَلَى الوَغَى ....

ومن الاستعارة قوله :

ولولاه لاأرتدّ الفريقُ الذِى اهْتدَى
وعَطَّل مِن جِيدِ النبوةِ حالِيـــا

وقوله : وأنكَ لَمْ ترقَ الخِلافَةَ بالغِنَى
لِسانُ بغيداقِ الفَصَاحَةِ ناشِرُ

وقوله :

وماهُو إلاَّ الحقُّ نبهتَ صَوتَــه فقام لَهُم عَن جَانِبِ القَلْبِ حَاكِيَا

وقوله :

تَردُّ عُيونَ السَّاهِمينَ حَسِيـرةً وتدفَعُ من ثَقبِ المِنيَّةِ هَابِيَـا

وقوله :

ومَاذا عَلَيهِم أنْ تطِيرَ نفُوسُهم إذَا هُو أمسَى نَاعِم البَالِ هَانِيَا

وقوله :

صَدَى عزمَاتٍ طَارَ مِن قَبلِ خَالِدٍ
يقـولُ بأفـواهِ الرِّيـاحِ حَذارِيَـا

ومن الكتابة قوله :

إذا الحقُّ حَالَتْ جَونةٌ دونَ شمسِه
رأَوا قَبَسـاً مِنْـهُ إلى الحقِّ هَادِيَـا

وقوله :

وُروحُ بِلالٍ قابَ قَوسينِ من نَوى تودّع منْ أطلالِ جِسم بَوالِيَـا

وقوله من الكناية أيضاً :

تمرَّض مابين الحِمامِ وبَينَه ..

وقوله :

ومَابعدَ ماقَالَ النَّبِيُّ لزوجِـه وأعضَاؤه يُنصِتْنَ للموتِ دَانِيَـا

وقوله :

فقالَتْ أبوَ بَكرٍ رَتيقٌ فؤادهُ ... إذا قَامَ بَينَ النَّاسِ هَاجَ البَواكِيَا
فقال أتأبَاه صَواحِبَ يوسُفٍ ... وغَيرُ أبِي بكر أرَى اللّهَ آبِيَا

وقوله :

وَرِيعَ أبُوَ حَفصٍ بموتِ مُحمدٍ ...

وقوله :

أقَطُّ النَواصِيَا ... وألقَى على قَطِّ الخلودِ المرَاسِيَا
نَهضتَ بأمرِ النَّاس .... وقوله :
أكفُّ ابنُ عبد اللّه تعقدَ رايَةً ... وكفُّ أبَى بكرٍ تحلُّ الأواخِيَا
وإن ابن زَيدٍ بَعدَها غيرَ مدَّعٍ ... إذا قَال إنْ الشَمسَ دونَ مكَانِيَا
وماذَا عَليهِم أن تَطيرَ نفُوسُهم ... إذا هُو أمسَى نَاعِم البَالِ هَانِيَا
فكَادَتْ رِئَاتُ الخيلِ ترقَى حُلُوقَها ... وتَبلغُ أرواحَ الرِّجَالِ القَرَاقِيَا
ويَومَةٍ لايَثبتُ الضَبُّ قَيظَهَا ... ولم تستَمع فى الدَّهرِ للجنِّ حَادِيَا
أفِي خَلدِ الأسَالِ أنَّ خليفَةٍ بهَا ... رَائحاً فِي نُصرَةِ اللّهِ غَادِيَا
إذا ماجَوارِى الحَيِّ هبتْ بشَاتِها ... تُسَاوِم حَلَّابَا وتسألُ رَاعِيَا
قَعدتَ بأجلالِ الخلافَةِ ضَارِعَا ... تَدِرُّ شويهَاتٍ وترعَى جَوارِيَا

وإلى جانب الصور البيانية من تشبيه واستعارة وكناية فقد حفلت المطولة ببعض المحسنات البديعية من غير إغراق ولاتكلف فمن ذلك الجناس كما فى قوله :

بأوَّلِ صِدِّيقٍ وأوَّلِ مؤمِنٍ ... وأوَّلِ شُورِى أشَد رَجائِيَا
وأنَّك لَمْ تَرقَ الخِلافَةَ بالغِنَى ... ولاالسِّن لكِن بالنُّهَى كُنتَ رَاقِيَا
رَجَوتَ أبَا حَفصٍ وآثرتَه بِهَا ... فصَادفْتَ مِنه مؤثراً لَكَ رَاجِيَا

إذا الحق حالت جونة دون شمسه رأوا قبساً منه إلى الحق هاديا
وقال رأى الصديق في الأمر ردة وكنت أرى الصديق في الأمر غاليا
كريم يرى مافي يد الناس فانياً وليس يرى مافي يد الله فانيا
وأنساه هول الخطب آية ربه وليس أبو بكر على الخطب ناسيا
ولما أراد الله نصرة دينه بيدٍ رأى الصديق للدين واليا

ومن الطباق قوله :

ولولاه لارتد الفريق الذي اهتدى ...
يقربه من رحمة الله حينها ويزداد بالإقصاء منه تدانيا
رأى نور عين في ظلام منية
وطاروا بأسباب القتال كأنهم فراخ حمام صادفت منك بازيا
فشق رواء عن أسامة راكبا يشيعه فيه الخليفة ماشيا
وتضرم من تلك العواطف خابيا
رأى جمعهم في الحرب داء وإنما رأى وحده الصديق فيها تداويا
ومن ضمن الإجلال في كل بردة رأى ماوقاه الحر والبرد كافيا
فشق رواق الليل عن رونق الضحى..
ألا عائل إلا تمثلت كافلا ولامشعل إلا تمثلت آسيا
فذكرك في الأحياء سال مدائحا وذكرك في الأموات حال مراثيا
ولافرق فيهم بين مولى وعبده إذا جاءهم عبد لمولاه شاكيا
وماالحق إلا حائط بين قوة وضعف ليس العدل إلا تقاضيا

بناء القصيدة :

لقد سلك الشاعر عبد الحليم المصرى فى بناء هذه القصيدة مسلك القدماء على أساس وحدة الوزن والقافية مع تعدد الأغراض داخل المطولة وتنوعها بما يعبر عن شتى الأحداث التى شملتها الفترة وهذا المسلك القديم فى بناء القصيدة يرجع إلى أن القصيدة العربية القديمة كانت تدور عند نشأتها حول مايشغل الرجل البدوى وينبع من حياته مثل وصف الأطلال والناقة والرحلة ومنازل الأحبة وحيوان الصحراء ونباته، حتى إذا ظهر المدح والتكسب بالشعر لم يشأ الشاعر العربى المفطور الذى كان يقول الشعر أصلاً للعبارة عما فى نفسه أن يتخلى عن هذا الغرض الشعرى الأصيل لكى يقرض قصيدته كلها فى المدح ولذلك أخذ يجمع فى قصائده بين الغرض الشعرى القديم والغرض النفعى الطارئ أى يجمع بين حديثه عن الأطلال والناقة والصحراء والحبيبة ومدح من يريد أن يستدر عطاءه، وهكذا تكونت القصيدة العربية ذات الأغراض المتباينة المتتابعة، وأصبحت هذه الظاهرة تقليداً شعرياً ثابتاً عند العرب»[1] ثم مضى الزمن والنمط الموروث للقصيدة العربية فى بنائها الفنى نموذج يحتذيه الشعراء على توالى العصور إلى العصر الحديث حيث كان البعث الأدبى والنمو والإزدهار الذى لحق بالأدب فى شتى فنونه على يد رواد كبار حيث عادوا به إلى عصور القوة والازدهار، وصحب ذلك البعث الأدبى بعث إسلامى وظهرت الحركات الوطنية، فى مواجهة الاحتلال والتغريب الذى غشى العالم الإسلامى منذ الحروب الصليبية، وتيقن الغيورون على الدين والوطن أنه لابد من المحافظة على شخصية الأمة ورأوا أنه لن يتحقق ذلك إلا بالعودة إلى الموروثات والتمسك بأهداب الدين وكان الأدب صورة لذلك، وفيه أخذ الشعر صورته

---

(١) الشعر المصرى بعد شوقى الحلقة الأولى د. محمد مندور ص١٣ .

الجديدة حيث كان جديداً فى شكله ومعناه نازعاً إلى صورته الأصيلة وعناصره الموروثة، وبذا عادت إلى القصيدة العربية فى العصر الحديث، خصائصها الفنية الموروثة، من حيث الصياغة والبناء التقليدى الذى يقوم على تعدد الموضوعات فى القصيدة الواحدة كما كان الشعراء القدامى .

وشاعرنا – المصرى – سلك مسلك القدامى فى مطولته هذه موضوع البحث، من حيث طولها وتعدد موضوعاتها وأحداثها وإن كانت تتعلق بشخصية واحدة هى شخصية الصديق رضى الله عنه إلا أن الشاعر لم يبتدئ قصيدته بالغزل على عادة الشعراء القدامى، ولم يكن بالمطولة وصف لأطلال أو رحلة أو راحلة بل نجد الشاعر قد اتجه فى بداية قصيدته إلى الصديق رضى الله عنه طالباً منه أن يفيض عليه بمعنى أن تكون محبة الشاعر لشخصية الصديق وأعماله العظيمة داعية له لأن يقول الشعر ويجسد تلك الأعمال من منطلق المحبة والتعلق والاقتداء بالسلف الصالح رضى الله عنهم أجمعين ثم إنه قد حمل الصديق رسالته إلى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم موضحاً أنه حين يمدح الصديق لم يكن بعمله هذا مجاوزاً مدح الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لأن الصديق ماكان ليكون لو لم يكن الرسول الكريم ...!!

وأن الصديق مقتبس من الرسول الكريم وفيض من نوره عليه الصلاة والسلام فهو النور الهادى للبشرية جمعاء ..

ثم تطرق الشاعر لمدح الرسول الكريم وعلو مقامه واستغل شعره ورآه دون مقام الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ثم انتقل إلى الصديق رضى الله عنه مجسداً خصاله وأعماله من خلال شعره وكان أن ذكر الشاعر السبب فى هذه القصيدة بقوله :

وأضرِبُ أمثالاً لقومى تهيئهُـــم بصُورةِ شيْخ المسلمينَ كما هيَا
عَسَى أن يعيدُوا ماأضَاعُوا من الهُدَى وأن يتلافُوا مِنهُ ماكَانَ بَاقِيَا

وبذا يحقق الشاعر صدق مقولة الناقدين عن الشعر العربى وأهميته فى الحياة وخصوصاً خلال فترات البعث والتحرر والحركات الوطنية حفاظاً على شخصية المجتمع بما يحوى من دين قويم وعادات وتقاليد مرتبطة به فى مواجهة مايأتى من خارج حدود الوطن وذلك حين قالوا: «كان الكلام كله منثوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها وفرسانها الأنجاد وسمحائها الأجواد لتحض أنفسها على الكرم وتدل أبناءها على حسن الشيم...» (١) وكما يظهر من خلال شعره فإن هذا هو السبب فى نظمه لهذه المطولة وتجسيده لأعمال الصديق رضى الله عنه كما أنها كانت السبب فى تناولها بالدراسة والبحث إعجاباً وتقديراً وإحياء لما نفتقد الكثير منه من أعمال السلف الصالح ونماذج سيرهم وعظمة مسلكهم فى الحياة وفى المطولة يتحدث الشاعر عن شخصية الصديق ثم يذكر الأحداث المهمة فى التاريخ الإسلامى والتى كانت معاصرة للصديق رضى الله عنه وكان أعظم أبطالها والمتحملين بصبر وأناة ووعى تبعاتها ومصاعبها وكان الصديق رضى الله عنه كما قيل «عذيقها المرجب وجذيلها المحكك..» .

ويلاحظ على الشاعر المصرى في مطولته بأنه توجه بالمدح إلى الرسول صلى الله عليه وسلم والصديق رضى الله عنه واستلهمه فيما ينوى نظمه من شعر، وذكر السبب فى نظمه تلك المطولة وهو إعادة ماضاع من الهدى...!! وحسن الاقتداء .

كما يلاحظ أن الشاعر قد قدم بعض الأحداث فى سرده لها فى المطولة على غيرها مثل تقديمه ليوم تبوك وهى غزوة قاد الرسول جيشه فيها إلى الروم على هجرة الرسول الكريم إلى المدينة وهى قد وقعت قبل غزوة تبوك .

---

(١) العمدة - ابن رشيق جـ١ ص ٢٠ .

كما أنه قد أخر تصويره لذهاب الخليفة إلى السوق ملتمساً قوت عياله حتى بعد أن أصبح خليفة مزجياً بضاعة يتاجر فيها وطلب المسلمين منه ترك العمل بالتجارة والتفرغ لشئون المسلمين وقيام أهل الحل والعقد بفرض عطاء له من بيت مال المسلمين ينفق منه على أهله لقاء تحمل مسئولية الأمة الإسلامية الناشئة ...

وفيما أرى - فإن ذلك لايعد عيباً - كما نعلم - في القصيدة الغنائية حيث يترك للشاعر حرية تدفق موهبته الشعرية لتأتى بالعجاب دون تسلسل منطقي أو ترتيب موضوعي ولايطالب الشاعر بهندسة قصيدته على شكل معين، أو ترتيب منطقي محدد لأن ذلك من شأن العقل والشعر وجدان وخيال فياض كما قيل: (١)

أَلاَ يَاطَائِرَ الفِـــرْدَوسِ إِنَّ الشَّعْـــرَ وِجْـــدَانْ

ولأن الشاعر الغنائي وجداني بطبيعته ينفعل بأحداث تؤثر في نفسه، وتسبح في مخيلته، ثم تنطلق هادرة إلى خارج ذاته على صورتها التي يدبجها الشاعر، ولنا أن نتخيل الشاعر في تلك اللحظات وقد فقد الإحساس بمن حوله وماحوله، وسيطرت انفعالاته وخيالاته على ذاته فلايكون هناك منطق ولاتاريخ إلا نظم موضوعات الشعر ووضعها في القصيدة وفق مايرى، وماتسمح به موهبته في دفقات شعورية وجدانية لاسلطان لأحد عليها، في نظم بديع وموسيقى جميلة وإتقان محكم، يشجي المتلقي، وينقله إلى عالم الشاعر وقد ثارت أحاسيسه واتقدت مشاعره وأحس بلذة فنية ومتعة نفسية وحينئذ يكون الشاعر قد نجح في عمله الشعري، وكلل تجربته الشعرية بنجاح سيرورتها بين الناس، وأدائها دورها فيما ينفع المجتمع الإنساني ...

والله تعالى أجل وأعلم،

---

(١) ديوان شكري - عبد الرحمن شكري.

المصادر والمراجـــع

- العـمدة في محاسن الشعـر وآدابه ونقـده - ابن رشيق القيـروانى تحقـيق محمد محيى الدين عبد الحميد .
- الوساطة بين المتنبى وخصومـه - القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - على محمد البجاوى طبعة ٣ دار إحياء الكتب العربية- عيسى البابى الحلبى.
- البداية والنهاية - ابن كثير دار الغد العربي .
- الشعر المصرى بعد شوقى - د. محمد مندور - دار نهضة مصر .
- خصـائص الأدب العـربى فى مـواجهـة نظريات النقـد الأدبى الحـديث أنور الجندى - دار الكتاب اللبنانى - دار الكتاب المصرى .
- الحداثة فى الشعر القديم .
د. حلمى حسن أبو العز طبعة - التركى للكمبيوتر طنطا .
- عمود الشعر الأدبى فى موازنة الأمدى .
د. على على صبح - مكتبة الكليات الأزهرية .
- فصول فى الشعر ونقده - د. شوقى ضيف - دار المعارف مصر .
- فـصـول فى الأدب والنقـد والتـاريخ - على أدهم الهـيـئـة المصـرية العـامـة للكتاب .
- شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى- عباس محمود العقاد دار نهضة مصر للطباعة والنشر .
- تطور الأدب الحديث فى مصر - د. أحمد هيكل .
من أوائل القرن التاسع عـشـر إلى الحـرب العـالميـة الثـانيـة دار نهضة مصر للطباعة والنشر .

- أبو بكر الصديق- محمد حسين هيكل - دار المعارف مصر .
- الشيخان - د. طه حسين دار المعارف مصر .
- الاتجاه الإسلامى فى الشعر المصرى الحافظ ١٨٨٢-١٩١٩ .
د. نبيل سليمان طبوشه .
- معلقات العرب د. بدوى أحمد طبانه .
- تهذيب سيرة ابن هشام .
د. عبد السلام هارون . المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع .
- البناء الفنى للصورة الأدبية فى الشعر .
د. على على صبح - المكتبة الأزهرية للتراث .
- فى الأدب الجاهلى دراسة ونقد .
د. على على صبح .
- الأدب الإسلامى بين النظرية والتطبيق .
د. على على صبح .
- الصورة الأدبية تاريخ ونقد .
د. على على صبح .
- مصادر الشعر الجاهلى .
د. ناصر ا لدين الأسد - دار المعارف بمصر طبعة ٦ .
- عيار الشعر - ابن طباطبا .
- الإسلام فى شعر شوقى - د. أحمد. الحوفى دار المعارف .
- العامل الدينى فى الشعر المصرى الحديث .
د. أحمد الحوفى .
- الصديقة بنت الصديق - عباس محمود العقاد . دار المعارف بمصر .
- ديوان المصرى - عبد الحليم المصرى - الهيئة العامة لقصور الثقافة .

- ديوان شكرى . عبد الرحمن شكرى.
- شعراء الوطنية . عبد الرحمن الرافعى .
- الإطار الموسيقى للشعر ملامحه وقضاياه .

د. عبد العزيز نبوى - الصدر لخدمات الطباعة .

- تطور القصيدة الغنائية فى العصر الحديث .

د. حسن أحمد الكبير - دار الفكر العربى .

- الاتجاه الوجدانى فى الشعر العربى المعاصر .

د. عبد القادر القط - مكتبة الشباب .

- فى النقد الأدبى .

د. شوقى ضيف - دار المعارف بمصر .

- الأدب والحضارة -

د. السيد تقى الدين - دار نهضة مصر للطباعة والنشر .

- النقد والنقاد المعاصرون

د. محمد مندور - دار نهضة مصر للطبع والنشر .

- فى الأدب الحديث

د. عمر الدسوقى - دار الفكر العربى .

- التصوير الفنى فى القرآن الكريم .

سيد قطب - دار الشروق .

- مع الشعراء .

د. زكى نجيب محمود - دار الشروق .

- فى النقد الأدبى الحديث .

د. محمد غنيمى . هلال دار نهضة مصر .

- شعرنا القديم والنقد الحديث .

د. وهيب أحمد رومية - المجلس الوطني للتعاون والنقد والآداب - الكويت .

- فصول في الأدب والنقد والتاريخ .

على أدهم - الهيئة المصرية العامة للكتاب .

- الشعر وطوابعه الشعبية على مصر العصور .

د. شوقي ضيف - دار المعارف.

- الصورة الفنية في شعر دعبل بن على الخزاعى .

د. على إبراهيم أبو زيد - دار المعارف .

- وظيفة الناقد الأدبى بين القديم والحديث .

د. سامى منير عامر -دار المعارف بمصر .

- المعيار في نقد الأشعار .

لأبى عبد الله جمال الدين محمد بن أحمد الأندلسى

تحقيق د. عبد الله محمد سليمان هنداوى

مطبعة الأمانة جزيرة بدران شبرا مصر .

- النقد الأدبى أصوله ومناهجه .

سيد قطب - دار الشروق .

- النقد الأدبى .

أحمد أمين - مكتبة النهضة المصرية ش عدلى .

- تطور النقد الأدبى الحديث .

د. عبد العزيز الدسوقى .

- الصناعتين الكتابة والشعر .

أبى هلال الحسن بن عبيد الله بن سهل العسكرى .

تحقيق د. مفيد قميحة- دار الباز للطباعة والنشر .